مكتبة بيت الحريات
maktabbah.blogspot.com

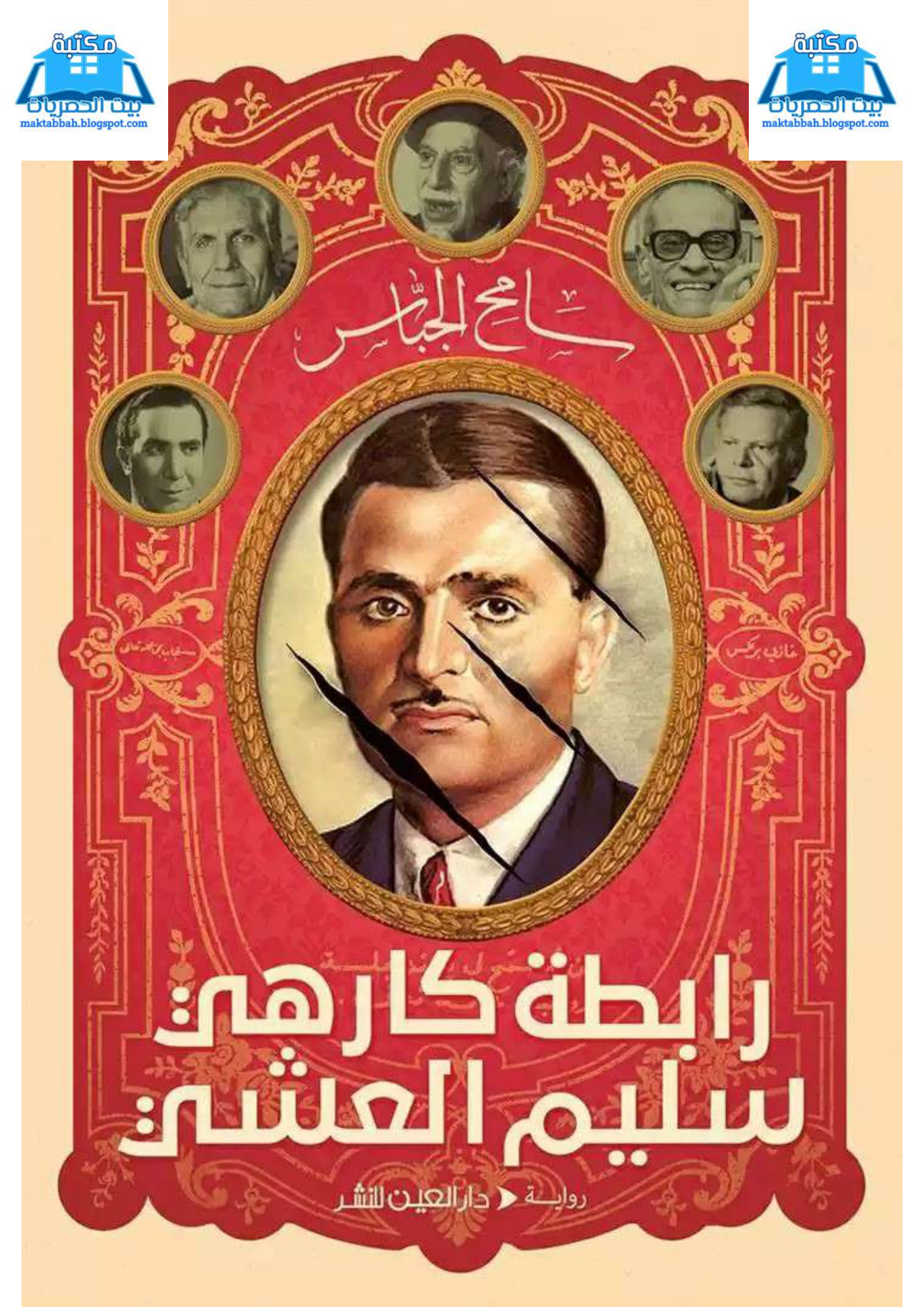

سامح الجباس

رابطة كارهي سليم العشي

رواية

دار العين للنشر

ما حدث

محبطًا كنت، وأنا أرى الدنيا من حولي تتخبّط في حيرة، وتدخل في متاهات سياسية واجتماعية، يعجز أينشتاين عن فهمها.

حتى بريدي الإلكتروني، لم أطّلع عليه سوى مرة واحدة كل اسبوع، لم اكن اتوقع اي اخبار جيدة، وكانت شركة الأدوية -التي أعمل بها- قد تركتها بعد خلافات بيني وبين صاحبها حول أمور كثيرة تتعلق بالضمير، لا مجال للحديث عنها.

، لا تشجع أي شركة قطاع 2012 كنت أبحث عن عمل، والظروف في هذا الوقت، بداية يناير خاص على تعيين أي شخص. كل يوم يمر تنغلق فيه مزيد من الأبواب أمام وجهي، وقد توقفت عن الكتابة، التي أعشقها، لأن حالتي النفسية كانت سيئة.

في ذلك اليوم العاشر من يناير، فتحت بريدي الإلكتروني بلا حماس، فوجئت برسالة من بريد إلكتروني لا أعرفه، ولا أستطيع ذكره هنا:

"السيد سامح..

نحن مركز ثقافي مقره نيويورك، تابعنا باهتمام رواياتك، لذلك وقع اختيارنا عليك، لمنحة كتابة رواية عن موضوع –نحدده- لك، علمًا بأن هذه المنحة مدفوعة ولا تشترط إلا تفرغك لفترة عام أو أكثر قليلًا، والمنحة ستغطي أجرك ككاتب، ومصروفاتك، وسيكون المبلغ مجزيًا.

إذا وافقت، أرسل لنا ردًا، وسيتواصل معك مندوب من طرفنا.

كما نرجو إرسال رقم هاتفك الخلوي".

بعد أن أنهيت آخر حرف في هذه الرسالة، كنت قد قررت الموافقة، وبعد لحظة أرسلت ردًا، لم يكن يهمني كم سيكون مبلغ المنحة، فأنا في ظروف أقبل فيها أي عمل.

* * *

من دون الدخول في تفاصيل لا تهم أحدًا، كان موعدي مع هذا المندوب في اليوم الخامس من معرض القاهرة الدولي للكتاب، دورة 2012، كان رقم هاتفي المحمول معه، في الحقيقة: معها.

لم أكن أعرف سوى اسمها: فاطمة.

كنت قد أخذت من أخي مبلغ خمسمائة جنيه، من أجل معرض الكتاب، حتى أبتاع بعض الكتب، لا أحد يعرف حتى الآن، ولن يعرف أحد بما سيحدث معي، حتى أسرتي.

لم تكن نقودي تكفي، لذلك، قررت التجول في سور الأزبكية حيث الكتب القديمة الرخيصة.

عندما أكون في مكتبة أو في معرض الكتاب أنسى نفسي، لقد نشأت على عشق الكتب، فهي الوحيدة التي تمنحني السعادة بلا مقابل، أخذت أقلّب بين أكوام الكتب والروايات والمجلات القديمة، حتى إني نسيت موعدي مع فاطمة تلك.

لم يدفعني الفضول –الذكوري– لتخيّل ماذا ستكون عليه فاطمة. كانت لهجتها في مكالمتها لتخبرني أنها وصلت مصر، تحمل لهجة شامية، لا أعرف إذا كانت سورية أم لبنانية، كانت مشاكلي تشغل بالي أكثر من كوني سأقابل فتاة لبنانية فاتنة، مغرية، رقيقة، متفتحة، كما هي فكرتنا كمصريين عن الشاميات.

شغلتني الكتب التي سأشتريها عن كل ذلك، كما شغلني سؤال: هل ستعطيني فاطمة أي مبلغ –تحت حساب– اليوم؟ كنت أحتاج بشدة للمال، وكنت أكره أن أقترض نقودًا من أحد، لأني لا أعرف متى سأجد عملًا، وأعترف –بيني وبين نفسي– أني كرهت العمل في شركات الأدوية، لكن لا توجد أمامي اختيارات.

كنت أقف أمام ركن للجرائد والمجلات القديمة، تستهويني عناوين الجرائد القديمة التي صدرت في الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي، لأني أعتبرها "لا تزال طازجة" بها حماسة واندفاع اليوم الذي طُبعت فيه، على العكس من كتب التاريخ –الباردة– التي كُتبت بعد انقضاء العواصف بسنوات، وبعد أن خمدت العواطف وتباينت المصالح والغايات من وراء تسطير هذه الكتب.

انتزعتني رنة هاتفي الموسيقية من الغوص بين هذه الكنوز التاريخية. نظرت إلى شاشة المحمول، فإذا برقم لا أعرفه، تمنيت أن تكون فاطمة أو ربما شركة أدوية أرسلت لها سيرتي الذاتية تطلبني من أجل إجراء مقابلة.

رددتُ، فجاءني صوتها، قالت إنها فاطمة، وقالت إنها داخل معرض الكتاب وتنتظرني أمام المبنى الرئيسي القريب من مدخل شارع صلاح سالم، سألتها كيف سأعرفها، وردت بأنها تعرفني من صوري.

أنهيت المكالمة وتحركت، وقد حرصت أن أؤجل شرائي للكتب حتى أقابلها.

كنت أدعو الله أن يوفقني في الاتفاق معها. أولًا لأني أحب الكتابة، وثانيا لأني أحتاج لأي دخل مادي بشدة. كنت أتمنى أن يكون موضوع الرواية -التي اشترطوا أنهم من سيحددونه- مناسبًا لي، فأنا –على الرغم من كل الظروف– لا أكتب إلا ما أنا مقتنع به، وبصراحة لا أعترف بالكتابة الموجهة، لأنني كاتب لا أستطيع أن أكتب دون أن أشعر بحريتي.

كنت ألوم نفسي على هذه الأفكار، وأقول في نفسي: كف عن وضع العراقيل أمام نفسك حتى لا تتعقد الأمور! فلتقبل وحسب!

بين هذا الزحام وجدت نفسي –على الرغم مني– أنظر إلى شابة تقف وحدها، لا أعرف، لم لفتت هذه الشابة انتباهي، بعد لحظات وجدتها تنظر لي ثم تتحرك نحوي، صافحتني بحيادية،

وشعرت بكفها الصغيرة تنفلت من بين كفي بسرعة.

سألتني:

- هل هناك مكان نجلس فيه؟

كنت أعرف أن هناك الكثير من الكافيهات داخل المعرض، وتحركت معها في صمت، كانت هناك أسئلة كثيرة أود لو أطرحها عليها، ولكني فضلت الصمت، أنا لست جريئًا في معاملتي مع النساء، لست مبادرًا، لا أقول كل ما أريد، أفضّل الصمت.

فاطمة أيضًا لم تتكلم كثيرًا، أشارت فقط أنها وصلت بالأمس إلى مصر -لم تخبرني من أين جاءت- وجدت نفسي مضطرًا للسؤال من أجل كسر حاجز الإحراج:

- لبنانية؟

هزت رأسها بالإيجاب دون أن تلتفت لي، كانت أقصر قامة مني، ينسدل شعرها الأسود الفاحم الناعم في خصلات طويلة حتى ظهرها، كان هذا فقط ما لمحته منها، ثم داريت وجهي عنها محرجًا، ماذا تقول عني إذا لاحظت -وكل النساء تلاحظ دون أن يُدرك الرجال ذلك- أنني أتأملها؟

وصلنا إلى أحد الكافيهات، كانت خيمة كبيرة تُقدم المشروبات والأطعمة السريعة، كان جوها خانقًا، كنت أشعر بالخجل من سوء وضع هذه الكافيهات داخل معرض الكتاب. جلست في مواجهتي، وسألتها عما تشرب، فطلبت قهوة سادة.

قبل أن تأتي القهوة سألتها:

- لماذا أنا؟

أخذت تحدثني عن رواياتي التي بدا لي بوضوح أنها قرأتها -ولا أعرف كيف، فقد صدرت في مصر فقط- وعن أنهم لايبحثون -بصراحة- عن كاتب مشهور، قالت كلامًا كثيرًا عن كتاباتي، لكني كنت أركز أكثر في عينيها الغريبتين، لم تكن كأي عيني أنثى رأيتها في حياتي، كان سواد عينيها يملأ معظم مساحة العين، وكان شعرها منسدلًا ليحيط بوجهها فبدا سواد عينيها كأنه أعمق.

كنت أتأملها -ككاتب وليس كرجل- حتى سمعتها تقول لي:

- أظن أنه يهمك أكثر أن تعرف من نحن؟

وضعت النادلة الشابة فنجان القهوة أمامها، وفنجاني أيضًا أمامي، ثم ابتسمت لنا وانصرفت، كنت قد لاحظت نظرات الجالسين نحونا، يبدو أن فاطمة تجذب انتباه الكثيرين.

انتبهت إلى كلامها، كان صوتها عمليًا، هادئًا، ليس ناعمًا بل إن به بحّة غريبة.

قالت إنها مسئولة النشر بدار نشر عربية مقرها نيويورك، وإنها ستخبرني باسم دار النشر بعد الموافقة على مشروع الكتابة، وإن المطلوب مني هو التفرغ تمامًا لكتابة رواية توثق حياة شخصية مهمة ستخبرني بها فيما بعد، وأنه سيكون هناك مقابل مادي -وأخبرتني بمبلغ أذهلني- وفي حال الموافقة، سأنتقل إلى بيروت فترة زمنية لمعايشة الأحداث ومقابلة بعض الشخصيات.

قاطعتها:

- وإذا كان لي رأي مخالف لما ستقوله هذه الشخصيات؟

ردت بجواب يبدو أنه جاهز مسبقًا:

- أكتب كل ما تريد بحرية تامة، لكن أعلم أنه -قبل طباعة الرواية- من حقنا حذف رأيك الشخصي.

ضايقتني العبارة، لكن شيطاني قال لي: أنت تحتاج للمال وللكتابة، حتى ❞ تتخلص من هذه الحالة النفسية السيئة، وأيضًا هناك سفر إلى بيروت، حيث الطبيعة الجميلة، و... والبنات الجميلات!

هززت رأسي بالموافقة.

شرعت تشرب قهوتها، بينما لاحظت أنفها الصغير، وفمها الواسع إلى حد ما، كان فكها العلوي يبرز قليلًا، لكن بشكل يضفي جاذبية على وجهها.

بشرتها كانت أقرب إلى الشمرة التي تعبُر عن نبض الحياة، إنها ليست من أولئك الشابات الشاحبات الأشبه بالتماثيل الخالية من الحياة.

كان هناك شيء ما يتعلق بفاطمة.

شيء لا يمكنني تحديده. أنها لا تشبه أي شابة قابلتها في حياتي.

كانت هناك ابتسامة خفيفة على شفتيها، والآن فقط بدأت تنظر لي مباشرة.

وجدتُ نفسي أسألها:

- هل زرتِ مصر من قبل؟

ابتسمت وقالت:

- أريد أن أتجوّل في المعرض.

* *

لم أشتر كتبا في هذا اليوم لأحافظ على ما معي من نقود، اتصلت بأخي وأخبرته أني سأبيت

في القاهرة (حيث إني مقيم في مدينة أخرى).

* * *

أخبرتها في اليوم التالي، وأنا أجلس معها في بهو الفندق الذي أقامت فيه بحي مصر الجديدة، بينما قضيت أنا ليلتي في فندق صغير رخيص في وسط البلد، أنني أحتاج إلى مزيد من التفاصيل قبل أن أقرر.

هزت رأسها بتفهُّم، ثم أمسكت بحقيبة يدها، وأخرجت منها نقودا وضعتها أمامي على المنضدة الصغيرة التي تفصل بيننا ثم قالت:

- هذه خمسمائة دولار، احجز لك غرفة في هذا الفندق لمدة خمسة أيام.

أخذت الدولارات وسمعتها تقول:

- سأتركك الآن، وسأقابلك اليوم على الغداء في مطعم الفندق.

- يمكننا تأجيل لقائنا إلى الثامنة مساء، لأني سأذهب لمعرض الكتاب.

كان شراء الكتب يسيطر على تفكيري حتى إني نسيت أن أسألها عن موضوع الرواية التي سأكتبها.

* * *

في الأيام التالية، كنت أشعر أن نظرات فاطمة تجاهي قد تغيرت، ابتسامتها ازدادت طبيعية واتساعًا، وضحكت أكثر من مرة، كانت ابتسامتها جذابة، ونظراتها بها غموض

عرفت تفاصيل أكثر –لا أستطيع إلا أن أذكر بعضها- لأسباب لا يمكنني الإفصاح عنها.

- إذا كانت الرواية تدور أحداثها في لبنان، والشخصيات لبنانية، فلمَ لم تختاروا روائيًا لبنانيًا؟

- الموضوع له حساسية في لبنان.

بدأت أشعر بالقلق:

- لا أريد الدخول في مشكلات يا فاطمة.

- أنت ستكتب رواية عن شخصية حقيقية، وهذا حق لكل روائي.

- لكني روائي ولست مؤرخًا، يعني سأحتاج إلى الخيال.

قالت بابتسامة، وهي تعيد شعرها إلى وراء أذنيها:

- لن تستطيع أن تفرق بين الحقيقة والخيال في هذه الرواية

عاد شعرها –في لحظة– لينسدل كشلال من الليل ليحيط بوجهها.

فاطمة تبدو أصغر مني، ربما بعشر سنوات. هل ضاع عمري مني دون أن أشعر؟

أخبرتني أنه بعد سفرها، سيتم تحويل مبلغ إلى حسابي بالبنك، وسيكون علي إرسال صورة من جواز سفري إليهم لاستخراج التأشيرة وتذاكر السفر إلى لبنان.

- هل ستكونين هناك يا فاطمة؟

- سأكون معك في كل خطوة حتى تسلمنا الرواية كاملة.

داهمني شعور بالقلق، لم أحدد سببه. تعودت في حياتي أن الأمور لا تتم بهذه ❞ السهولة!

* * *

أعترف أنه في الليلة الأخيرة لفاطمة في القاهرة –وعلى الرغم من إبلاغها بموافقتي على العرض– كنت أشعر بالقلق.

قلق مصدره توتر أصابني عندما عرفت الشخصية التي سأكتب عنها الرواية.

وشعور لا أستطيع –ككاتب– توصيفه لفراق فاطمة.

لم أكن أبحث عن حب، ولا عن علاقة، وكانت فاطمة تحطم كل تصوراتي الخاطئة عن اللبنانيات، كانت ترتدي ملابس عصرية للغاية، لكنها لا تُبرز مفاتن جسدها، كفكرتنا عن اللبنانيات، لم أكن –صراحة– قد اهتممت -كرجل- بتفحص تفاصيل جسدها.

كنت أشعر أن جسدها جميل، لكن لم أكن أنظر إليه إلا كما تُختلس نظرة خاطفة سريعة إلى الشمس.

في ليلة سفرها سألتها إذا كان هناك عقد سأوقعه. قالت:

- سامح، نحن نثق بك.

- أخاف ألا ترضيكم الرواية كما سأكتبها.

- أثق أنها ستكون كما نريد.

- هل ستنشر في مصر؟

- لا.

- هل ستنشر باللغة العربية أم الإنجليزية؟

- لا أعرف.

- هل سيُكتب اسمي عليها عندما تُنشر؟

- هذا اختيارك أنت! سامح، لنكن واضحين معك. نحن لا نبحث عن روائي "يُجيد الكتابة"، بل نبحث عن روائي "يُجيد البحث عن الحقيقة".

- تبحثون عن حقيقة مرت عليها ثمانون عامًا وأكثر؟

هزت رأسها بالإيجاب، فتحرك شعرها الأسود كسبائك من الفضاء السرمدي.

- كل ما ستطلبه سنساعدك فيه، لكن أعلم أن المبلغ الذي وعدناك به لن تحصل عليه كاملًا إلا بعد أن نقرأ روايتك وتعجبنا.

- وإذا لم تعجبكم؟

- سنكون كالذكرى بالنسبة لك.

نغزني كبريائي الروائي فقلت لها:

- تعودت ألا أكتب إلا ما يرضيني أنا

قالت ببساطة:

- اكتب، وسنرى!

قالتها ثم فتحت حقيبتها ومدت يدها بداخلها، في لحظات كانت يدها خرجت، وهي تُمسك بميدالية بسيطة يتدلى منها مفتاح، مدت لي يدها بالمفتاح، وهي تطلب مني أن أحتفظ به معي، حتى إذا اقترب موعد سفري فإنها ستبلغني بأمر هذا المفتاح

أخذت منها المفتاح وأنا أقول:

- وإذا غيرت رأيي ولم أسافر، ماذا سيكون من أمر هذا المفتاح؟

قالت ببساطة:

- لن تعرف أبدًا أي باب يفتح!

* * *

بعد سفر فاطمة، فكرت كثيرًا في التراجع عن موافقتي، مالي أنا وتلك الشخصية الغريبة التي لم أسمع عنها من قبل؟ أنا أؤمن بأن الكاتب كي يكتب يجب أن يكون حرًا تمامًا في اختيار موضوع روايته، في اختيار لغته، طريقة معالجته للموضوع، فكيف سأكتب عن موضوع مفروض عليّ؟

لم أحب يومًا الكتابة الصحفية التي تُضطر –أحيانًا– للكتابة في موضوع محدد سلفًا. الكتابة الصحفية مختلفة تمامًا عن الكتابة الإبداعية.

وقلت لنفسي: إذا كنت موهوبًا حقيقة، فيمكنك أن تكتب في أي موضوع أيًا كان.

وخطر في بالي سؤال: ماذا لو اعتذرت؟ هل هو الدافع المادي فقط من دفعني للقبول؟

وفكرت قليلا، كنت في تلك اللحظات قد دخلت من بوابة معرض القاهرة ❞ للكتاب، وكان هذا هو اليوم قبل الأخير للمعرض، كان معي ما يكفي لشراء كتب قبل سفري إلى مدينتي.

وقلت في نفسي: صحيح أنها فرصة لدخل مادي لم أحصل عليه من قبل، مع كل تعبي وسفري في أرجاء مصر وأنا أعمل في شركات الأدوية. وقلت لنفسي؛ إن لدي خبرة أكثر من عشر سنوات ربما تزكيني في العمل في هذا المجال قريبًا.

وعلى أسوأ الفروض، يمكن أن أعمل في صيدلية، فأنا –قبل كل شيء– طبيب، كنت –بصراحة– أكره العمل في الصيدليات لأني أجده روتينيًا مملًا.

كنت في تلك اللحظة قد دخلت إلى أول مكان تعرض فيه المؤسسات الصحفية كتبها، ونسيت كل شيء، إلا الكتب!

* * *

عندما استيقظت –في بيتي– في نهار اليوم التالي، كنت سعيدًا بما اشتريته من كتب. جلست أمام الكمبيوتر لأفتح بريدي الإلكتروني متعجلًا إغلاق الكمبيوتر لتصفح ما اشتريته من كتب.

لم أجد أي بريد وارد، وتذكرت أنه من المفترض أن أرسل لهم صورة من جواز سفري. قررت تأجيل ذلك لبعض الوقت. جلست، وقد أفرغت كل الكتب التي اشتريتها حولي. وفجأة خطر لي خاطر: لماذا لا أبحث في الإنترنت عن هذه الشخصية؟

وتذكرت فاطمة وهي تقول لي عندما قلت لها ذلك:

- لا أنصحك بذلك، فمعظم ما ستجده على الإنترنت معلومات مغلوطة، وربما تدفعك لتكوين رأي معين، ونحن نريدك أن تكتب بحرية وحيادية، كما طلبت.

أخذت أتصفح الكتب وأنا أفكر كيف سأكتب هذه الرواية؟

فاطمة أخبرتني أن رحلتي إلى لبنان ستكون لمقابلة بعض الشخصيات وزيارة الأماكن التي عاش فيها صاحب الرواية.

فكرت أن أرجع إلى الكمبيوتر، وأرسل لهم صورة جواز سفري، ثم أجلت الموضوع حتى أتصفح كتبي.

كان أجمل شعور أحسه في حياتي هو شراء وقراءة كتاب جديد، شعور يشبه شعور الشاب الذي يتعرف بفتاة فاتنة ثم يكتشف فجأة أنها تحبه!

مر بي الوقت دون أن أشعر حتى وجدت في يدي عددًا من مجلة قديمة.

كانت مجلة اسمها "الصرخة" لم أسمع عنها من قبل.

مكتوب في أعلى الغلاف:

"روز اليوسف ومحمد التابعي ومحمد حماد يحررون في هذه المجلة".

شعرت بالسعادة، كنت أحب أن أعايش اهتمامات ومشاعر الناس في تلك الحقبة.

وشرعت أقرأ:

"الصرخة

جريدة سياسية، انتقادية، مسرحية مصورة

صاحب الامتياز: عبد الرحمن العيسوي

العدد 31 يوم الثلاثاء 17 مارس 1931

"مسرحية مصورة".. استغربت التعبير.

غريبة، أني لم أقرأ من قبل عن هذه المجلة القديمة على الرغم من شهرة محرريها: روزاليوسف ومحمد التابعي.

وشرعت أتصفح المجلة، أمرُ بعيني على عناوين المقالات وقد أجلت قراءة التفاصيل لوقت آخر:

الجو السياسي

ملاحظات وأخبار صحفي متجول

أخبار على الماشي

أخبار المسارح والملاهي

وفجأة وجدت الصورة أمامي، في صفحة رقم .17

ودق قلبي بقوة، وعلى الرغم مني، سرت في جسدي رعدة وأنا أقرأ الإعلان أسفل الصورة:

حفلتان عظيمتان بتياترو برنتانيا يقدمهما

الدكتور داهش بك

الرجل العجيب محير عقول كبار علماء أوروبا المنوم المغناطيسي والعالم الروحاني بتجاربه العلمية الخارقة للطبيعة

الأحد 15 مارس والسبت 21 الساعة 9 ونصف مساء

ورفعت عيني إلى الصورة. كانت نسخة المجلة –بالطبع– مصورة عن نسخة قديمة، لم يكن الحبر باللون الأسود بل باللون البني، وهذا غريب، لذلك كانت الصورة يغلب عليها التعتيم وعدم الوضوح. شاب يقف معطيًا جانبه إلى الكاميرا، الشاب يبدو أسود الشعر، كثيف الحاجبين، ذا شارب رفيع، يرتدي بذلة كاملة، وكان قد رفع كفه اليسرى مفرودة الأصابع في مواجهة قطة تقف على صندوق مغطى بمفرش أمامه، كان يبدو مستغرقًا في التركيز على عينيّ القطة، وكانت القطة تقف في ثبات غريب وهي –أيضًا– تحدق في عينيه.

ماذا يفعل هذا الرجل؟ هل ينوّم القطة مغناطيسيًا؟

ظللت أحدق في الصورة وأقرأ اسم الرجل أكثر من مرة.

* * *

مجلة الصرخة –نفس العدد– صفحة رقم :24

"وصل إلى مصر الدكتور داهش، المنوم المغناطيسي والعالم الروحاني، وهو الذي أدهش العلماء بواسطة وسيطته المدموازيل "انتوانيت" يقرأ أفكار الناس - ويعلم ما يجول بخاطرهم، ويقرأ الخطابات المقفلة ويخبرهم عن أحوال الغائبين والتائهين وعن أحوال التجارة والزواج والسفر ونتائج القضايا، سواء عن الماضي والحاضر والمستقبل، كل ذلك ببراهين علمية ثابتة.

شهد بمقدرته العلمية أكبر معهد للتنويم المغناطيسي بباريس، وجمعية المباحث النفسية الفرنسية، والعظماء والكبراء، يقابل زائريه بلوكاندة جلوريا بشارع عماد الدين".

نظرت إلى الصورة التي تعلو الإعلان: هو يقف مواجهًا الكاميرا، شاربه أكثر وضوحًا في هذه الصورة، شارب قصير كشارب هتلر، إنه العام 1931، لم نكن نعرف هتلر بعد، يرتدي بذلة غامقة

تحتها قميص أبيض، يضع في جيب البذلة منديلًا أبيض، أنظر إلى وجهه محاولًا وصف المزيد من ملامحه، لكن هناك فراغًا أسود مكان العينين، ربما حاجباه الكثيفان يُخفيان عينيه، وربما أن عينيه أيضًا شديدتا السواد، ومع كثافة حاجبيه لم تظهرا في الصورة.

وقلبت صفحات المجلة بيد متوترة.

* * *

وجدت في العدد رقم 37 بتاريخ الأحد 26 أبريل سنة 1931، نفس الصورة ونفس الإعلان في صفحة 22، تحت عنوان (ملك التنويم المغناطيسي).

قرأت الإعلان فوجدته نفس صيغة الإعلان السابق، لكن في نهايته كانت هناك إضافة وهي:

"اغتنم هذه الفرصة السانحة لمدة شهر واحد فقط قبل سفره إلى الخارج، فقد لا يُتاح لك مشاهدته بعد المدة المحددة، صالة خصوصية للسيدات وأخرى للرجال.

الاستشارة يوميًا من الساعة 10 صباحًا إلى 2 بلوكاندة جلوريا بشارع عماد الدين تليفون 41 21 – مدينة

(تكرر هذا الإعلان أيضًا بنفس نصه، ونفس الصورة التي لا تُظهر عينيه في العدد 38 بتاريخ الأحد 3 مايو سنة 1931، وأيضًا في نفس الصفحة رقم (22

* * *

شرعت أقلّب صفحات المجلة بحرص واهتمام، فجأة رأيت في نفس العدد في صفحة 25 صورة لرجل يبدو عربي الملامح أو شرقيًا، يرتدي عمامة بيضاء على رأسه وله شارب رفيع، لكنه أطول من شارب الدكتور داهش، يرتدي بذلة أيضًا وربطة عنق، كانت عيناه واضحتين في الصورة، على الرغم من كثافة حاجبيه، وقرأت الإعلان:

خورشيد عالم المنجم الهندي الشهير بقراءة الكف ومعرفة ما يضمره الغيب ومقدار ما تصيبه من الحزم والتوفيق في الحياة والعيادة بميدان سليمان باشا رقم 6 من الساعة الثامنة إلى 12 صباحا ومن الساعة 3 إلى الساعة 8 مساء(.(1

بعد يومين سافرت إلى القاهرة لتنفيذ فكرة طرأت على بالي.

نزلت في شارع رمسيس، عبرت إلى الناصية الأخرى، كنت أعرف الشارع الذي سأتجه إليه، لكني لم أكن متأكدًا أني سأجد المكان الذي أبحث عنه. كانت مفاجأة لي أن وجدته.

كان هناك شعور بالألفة بداخلي، لأني أعرف هذا الشارع جيدًا، بل أحبه، فهذا هو الشارع "الأوروبي" في القاهرة من وجهة نظري، المباني أوروبية الطراز، إنه الشارع الأشهر في القاهرة "شارع عماد الدين".

كنت أقرأ الأرقام المثبتة على بوابات العمارات قاصدًا عنوانًا بعينه. تقريبًا قرب منتصف الشارع وجدت نفسي أصل إلى هدفي "فندق جلوريا".

رباه! هل أصدق ما تراه عيناي؟ هل يمكن أن يكون هو نفس الفندق الذي كان يستقبل فيه الدكتور داهش زبائنه في العام 1931؟

باب المدخل صغير بطريقة غريبة. هل هو فندق آخر بُني في نفس الشارع، واتخذ نفس الاسم القديم؟ رفعت رأسي لأنظر إليه، البلكونات حديدية واسعة، كلها مغلقة، الفندق من ثلاثة أدوار مطلي باللون الأصفر، بينما شيش البلكونات المغلق كان باللون الأخضر. كان الطراز قديمًا، طراز مباني بدايات القرن العشرين. وفجأة خرج رجل أشيب الشعر، يمشي منحنيًا بعض الشيء، ووجدته يتجه نحوي باستفهام.

- الباشا يريد حجرة؟

قلت بسرعة مستعدًا لاستكمال المغامرة:

- يبدو الفندق قديمًا، هل هو مغلق؟

ارتسم الحماس على وجهه طاردًا علامات الاستفهام بعيدًا:

- لا، إنه يعمل، ستعجبك نظافة الحجرات، كم ليلة تريد؟

- ليلة أو ليلتين على الأكثر.

- تفضل.

قالها وأشار إلى الباب، بينما عيناه تنظران إلى الحقيبة الصغيرة التي أعلقها فوق ظهري، تأملت المدخل عن قرب، لم يكن ضيقًا كما ظننت، بل كانت له ضلفة مغلقة خشبية على الجهة اليسرى، استوقفتني تلك النقوش التي تُزين المدخل.

مقرنصات متشابكة من الجبس الأبيض البارز على شكل أفرع شجيرات تتدلى لتحيط بدرفتي

الباب، وهناك برواز بيضاوي كبير من الورود بداخله كلمة بخط قديم GLORIA، كانت تلك المنحوتات الباروكية تؤكد لي أن هذا هو الفندق القديم الذي جئت من مدينتي لأبحث عنه.

لاحظ الرجل العجوز وقوفي، نظر إليّ باستغراب:

- يا باشا؟

تحركت خلفه داخلًا وأنا أقول له:

- يبدو أن هذا الفندق أثري؟

- هذا الفندق عمره تقريبا مائة عام.

نظرت إلى الرجل العجوز باهتمام:

- هل تعمل هنا منذ سنوات؟

- سنوات أكثر مما أقدر على حسابها.

ابتهج قلبي للإجابة، نظرت إليه ونحن نصعد سلمًا ضيقًا إلى الطابق العلوي، كنت أحاول تخمين عمره، لقد مرت اثنتان وثمانون سنة على إقامة الدكتور داهش في هذا الفندق، فإذا كان هذا الرجل يعمل بالفندق وقتها وعمره عشر سنوات، على أقل تقدير، فيجب أن يكون عمره الآن قد تعدى التسعين سنة! مستحيل!

وجدت نفسي أندفع لسؤاله:

- هل أنت أقدم العاملين هنا؟

توقف الرجل العجوز ليتفحّصني باهتمام ويسألني:

- هل حضرتك من الحكومة؟

انتبهت أن فضولي دفع الرجل إلى القلق. وصلت إلى مكتب الاستقبال، أعطيتهم بياناتي، كان هناك شاب هو من استقبلني، كنت مشغول البال، كيف أجد رجلًا –على قيد الحياة- لا يزال يملك ذاكرة جيدة، يكون قد عاصر زيارة تمت منذ اثنين وثمانين عامًا؟

فجأة، انتبهت إلى صورة قديمة بالأبيض والأسود موجودة في إطار على الحائط خلف موظف الاستقبال. نظرتُ إلى الصورة باهتمام كبير. صورة ملتقطة من الرصيف المقابل للفندق، نجيب الريحاني يقف مرتديًا بذلة فاتحة اللون، شابكًا يديه بيديّ فتاة سمراء اللون تبدو كأفريقية، وكأنهما يستعدان لأداء رقصة ما. الاثنان لا ينظران إلى الكاميرا بل ينظران إلى الجهة المقابلة حيث يوجد الفندق.

نجيب الريحاني مبتسمًا بسعادة، بينما الفتاة تضحك حتى إن أسنانها ❞ البيضاء تبدو بارزة من

بين شفتيها. فجأة وجدت نفسي أسأل الموظف الشاب وأنا أشير إلى الصورة:

- إلى أين كان ينظر الريحاني؟

نظر الموظف الشاب لي باستغراب ثم التفت لينظر إلى الصورة كأنه يراها للمرة الأولى، فجأة وجدت الرجل العجوز، وقد تغير وجهه

يلتف لي:

- دكتور، ليست لدينا غرف شاغرة!

* * *

في فترة لم تتجاوز الشهر وصلتني التأشيرة وتذاكر السفر، ومعها رسالة من فاطمة تخبرني فيها أن عليّ قبل ميعاد سفري إلى لبنان بخمسة أيام، السفر إلى القاهرة والذهاب إلى العنوان: 14 شارع إسماعيل أباظة بالمبتديان.

وأخبرتني أن المفتاح الذي تركته معي هو مفتاح شقة في هذا العنوان، سيكون عليّ أن أعيش فيها هذه الأيام الخمسة قبل سفري إلى لبنان.

هناك، قبل فتح باب هذه الشقة، خطر لي خاطر: إذا كانوا يملكون شقة في القاهرة، فلماذا لم تنزل فيها فاطمة بدلًا من الفندق؟

العمارة كبيرة وقديمة من ذلك الطراز الذي يملأ شوارع وسط البلد، الذي بناه الأجانب في القاهرة في بدايات القرن العشرين.

دخلت إلى الصالة المظلمة، مددتُ يدي وضغطت على زر الإضاءة، فأضاءت الصالة بمصباح أصفر قديم الطراز. كانت رائحة التراب تفوح في المكان، أدخلت حقيبة سفري وأغلقت الباب خلفي. وقفت أتأمل الصالة الواسعة ذات السقف المرتفع، كانت هناك سفرة حولها خمسة كراسٍ تتوسط الصالة، بينما في الركن أريكة طويلة تمتد بمحازاة الجدار الأيمن، وكانت هناك أمام الجدار الأيسر مكتبة متوسطة الحجم. جذبت هذه المكتبة اهتمامي وشغفي على الفور، فتحركت إليها، كانت لها درفتان زجاجيتان مغلقتان، ومن خلالهما رأيت بعض الكتب والمجلات القديمة مُلقاة بلا نظام فوق الأرفف. مددت يدي لأفتح الدرفتين، وجدتهما مغلقتين بإحكام، يبدو أنهما مغلقتان بمفتاح.

كان بلاط الصالة يبدو قديمًا لكنه نظيف، قررت أن أدلف إلى الممر المفتوح على الصالة، الممر طولي، على اليسار مطبخ متوسط الحجم له باب يبدو أنه يُفتح على سلم الخدم الخلفي، ابتسمتُ وأنا أتذكر الأفلام القديمة، بعد المطبخ هناك حمام واسع، قديم الطراز، وعلى الجانب الأيمن هناك حجرتان مفتوحتان، دخلت الأولى فوجدتها خالية إلا من أريكة، وشباك مغلق، أما

الحجرة الثالثة فكانت حجرة نوم بها أثاث قديم، سرير ودولاب، الغريب أن المكان نظيف، حتى ملاءة السرير تبدو كأنها فُرشت منذ ساعات فقط. في صدر هذا الممر كانت هناك حجرة ثالثة، حاولت فتحها، لكنها كانت مغلقة بالمفتاح.

فجأة رن هاتفي، نظرتُ إليه وعرفت أنها فاطمة، رددت عليها، فقالت:

- هل أعجبك المكان؟

- لماذا سأظل هنا لخمسة أيام يا فاطمة؟ ما المطلوب مني أثناء ذلك؟

- لا شيء، تعايش مع هذه الشقة ثم أخبرني عن انطباعك عنها عندما نتقابل.

قضيت اليوم التالي في التجول في الشقة، وشعرت بالفضول والغضب تجاه المكتبة المغلقة حتى إنني فكرت في كسر زجاج الدرفة لأقرأ هذه الكتب والمجلات القديمة التي عجزت عن معرفة عناوينها، بسبب أنها موضوعة بطريقة عشوائية غير منظمة.

عنوان كتاب واحد فقط هو ما استطعت أن أقرأه على كعب الكتاب، وهو كتاب "الطاقة الروحية" لهنري برجسون ترجمة سامي الدروبي.

أثار الكتاب فضولي، فأنا أعرف أن سامي الدروبي هو مترجم الأعمال الكاملة للروائي الروسي ديستوفيسكي، وأعرف أن هنري برجسون فيلسوف شهير، فلمَ يكتب فيلسوف عن "الطاقة الروحية" ولم أسمع من قبل عن هذه الترجمة مع شهرة سامي الدروبي!

هناك شيء ما يتعلق بهذه الشقة، وإلا فلمَ طلبوا مني أن "أتعايش" معها؟ فتشت الشقة –شبه الخالية– فلم أجد أي شيء يثير

الاهتمام.

حاولت أن أفتح الغرفة المغلقة –بسبب الفضول– لكني لم أستطع.

عدت مرة أخرى للمكتبة، ورحت أحاول أن أعرف ماهية الكتب والمجلات التي بها، استطعت –بصعوبة- تمييز كتاب كان يعلو كومة من الكتب، الكتاب قديم، أوراقه متآكلة وعلى الغلاف قرأت: "ظواهر الطرح الروحي".

تأليف: أحمد فهمي أبو الخير.

ليسانس في العلوم والتربية من مدرسة المعلمين العليا.

مدرس العلوم الأول بمدرسة السنية الثانوية.

مطبعة لجنة التأليف للترجمة والنشر .1946

قضيت أوقاتي أقرأ –بالتفصيل– في أعداد مجلة "الصرخة" التي أحضرتها معي، ولم تتصل

بي فاطمة مرة أخرى.

في ليلة سفري لاحظت في المكتبة بروز جزء سفلي من كتاب، لم أستطع إلا تمييز هذه الكلمات

أستاذ الحقوق بجامعة عين شمس

طبعة ثانية

تقديم: روح أمير الشعراء أحمد شوقي

ملتزم الطبع والنشر دار الفكر العربي

القاهرة 1966 مطبعة نهضة مصر بالفجالة

ما هذا الكلام! تقديم روح أمير الشعراء!

هناك شيء ما يتعلق بهذه الشقة وإلا ما طلبوا مني أن أقضي أيامًا فيها. لكن ما هو هذا الشيء؟

* * *

كنت أتأمل –باهتمام– وجه فاطمة وهي تتصفح إعلانات المجلة التي حملتها معي من مصر إلى لبنان، كان الاهتمام الكبير يظهر على وجهها، وكنا نجلس معًا في كافيه ذلك الفندق الذي حجزوا لي غرفة فيه بمنطقة "ساقية الجنزير" برأس بيروت، كانت المنطقة فخمة للغاية، أخجلتني نظرة فاطمة عندما سألتها عند وصولي الفندق:

- لمَ لم تحجزوا لي بأحد فنادق شارع الحمرا؟

كنت قد سمعت أن شارع الحمرا هو أجمل شوارع بيروت وأنك يمكن أن ترى فيه أجمل جميلات لبنان، لأنه الشارع السياحي الأول.

أخجلتني نظرة فاطمة وابتسامتها التي يبدو أنها تتهمني –كرجل– بالاهتمام بمكان يشتهر بملاهيه الليلية. من إحراجي قلت لها:

- لا تسيئي فهمي. سمعت أن في هذا الشارع أهم دور النشر والمكتبات في لبنان.

- أنت لن تحتاج لدور نشر.

- أريد شراء بعض الكتب وأنا ببيروت.

- سأصحبك إلى مكتبات شارع الحمرا، ويمكنك شراء ما تحب من كتب ونحن من سيقوم بالدفع.

في تلك اللحظة، رفعت فاطمة عينيها الجميلتين السوداوين بعمق غريب، نظرت لي، وانتظرت تعليقها على الإعلانات التي قرأتها، وسألتها عن أمر هذه الشقة التي قضيت فيها أيامًا مملة، بعد لحظات قالت ما لم أتوقعه:

- أنت غريب يا سامح!

مكتبة بيت الحصريات
maktabbah.blogspot.com

* * *

أعطتني فاطمة جهاز لاب توب جديدًا، وأخبرتني أنني سأستخدمه في كتابة الرواية أثناء وجودي في الفندق، ثم ناولتني بلوك نوت وقلمًا، وهي تخبرني أني سأحتاجهما في تدوين ملاحظاتي أو المعلومات التي سأحصل عليها، قلت لها ساخرًا، هناك شيء أحدث، وهو أن أسجل تلك اللقاءات على المحمول، لكنها قالت بلهجة حاسمة:

- لا تسجيلات! وتذكر أنه ممنوع تصوير أي ورقة أو صورة أو لوحة مما ستطلع عليها، مسموح لك باستخدام عقلك وقلمك فقط.

ثم سألتني إذا كنت أريد أن أقوم بجولة في بيروت، وجدت نفسي أرفض، وقلت لنظرة الاستغراب في عينيها:

- أفضّل أن أحتفظ بكل مشاعري، ومخزون ذاكرتي من أجل الأماكن والأشخاص التي سأكتب عنها، أريد أن أندمج وأعيش تمامًا في حقبة الثلاثينيات اللبنانية

واتفقنا أن نبدأ في اليوم التالي.

انتهت في تلك اللحظة –مؤقتًا– حكايتي لتبدأ الرواية.

* * *

الفصل الأول

الحمامة الذبيحة

ماجـدا حـــداد

"أنا أؤمن بأنه توجد عدالة سماوية، وأن جميع ما يُصيبنا في الحياة الدنيا من منغصات، إن هو إلا جزاء وفاق لما اجترحناه في أدوارنا السابقة من آثام وشرور، ولهذا يجب علينا أن نستقبل كل ما يحل بنا من آلام الحياة ومآسيها غير متبرمين ولا متذمرين، بل قانعون بعدالة السماء ونظمها السامية".

الدكتور داهش

* * *

إلى هدفي أسعى، وفي طريقي أمضي، وسأقفز فوق كل المترددين.

جهزت المسدس الذي سأنهي به حياتي اليوم، تاريخ هذا اليوم الذي سيظل طويلًا في ذاكرة أمي التي أعرف أن انتحاري سيحطم قلبها، هو السابع والعشرون من كانون الثاني/يناير 1945.

لن أنتحر يأسًا من الحياة، بل سيكون انتحاري رسالة إلى كل الظالمين.

منذ عامين فقط عرفته فتغيرت حياتي تمامًا. عرفت أن اسمه الأصلي هو سليم موسى العشي، وأنه وُلد في بيت لحم عام 1909، كان هذا قبل أن يختار اسم الدكتور داهش، بعد أن "أدهش" الجميع بخوارقه الروحانية، التي شهدت الكثير منها. لم أهتم بأن أعرف الكثير عن أسرته. لكني عرفت أنه تربى يتيم الأب. حكت لي أمي "ماري حداد" عن طفولته حكاية لا أنساها.

كان عمر الطفل لا يزيد على الثلاث سنوات عندما أصابه مرضٌ عضال، فاستدعى الوالد لعلاجه طبيبا أمريكيًا من المستشفى الأمريكي ببيروت، اسمه الدكتور سميث، وجد الطفل في غيبوبة، عالجه بالعقاقير حتى يسترد وعيه، لكنه لم ينجح، وإذ تسرّب اليأس إلى قلب أمه، وهمّ الطبيب بالانصراف، نهض الطفل فجأة، ثم أخذ يتحدث إلى الطبيب بالإنجليزية بطلاقة عجيبة، ذاكرًا له الدواء الذي كان عليه أن يعالجه به.

ذُهل الوالدان من تكلّم طفلهما بالإنجليزية، وسأله الطبيب مستغربًا: "كيف عرفت الداء

والدواء؟".

فأجابه الطفل: "أنا دواء كلّ داء".

خرج الطبيب من المنزل متعجبًا، وراح يُحدّث معارفه بما شاهد وسمع.

أذكر أني سألته يومًا:

- لماذا غيرت اسمك من سليم إلى داهش؟

فحكى لي أنه ألهم سنة 1929، بأنه يجب أن يُغيّر اسمه، ويتخذ اسمًا روحيًا، وسيُعطي الاسم الجديد عن طريق القُرعة، فأخبر تلاميذه بذلك؛ فعمدوا إلى كتابة أسماء كثيرة على قصاصاتٍ من الورق، ثم طووها وخلطوها، واختار سليم منها واحدة، فإذا فيها اسم "داهش".

أما عائلة الدكتور داهش، فأصلها من "أدن" الواقعة في بلاد ما بين النهرين، واسم العائلة الأصلي "أليشي" نسبة إلى النبي أليشع، الذي ظهر في عهد إيليا النبي، فحُرفت كلمة أليشي في بلادنا مع الأيام إلى العشي ودعي "سليم موسى العشي" ثم الدكتور داهش.

كنت أعيش مع أمي الرسامة والأديبة "ماري حداد" وأبي جورج حداد وأختي، أندرة وزينا. أسرة صغيرة حياتها هادئة.

لم يكن الدكتور داهش هو من تسبب لنا في تلك العداوة الرهيبة التي ثارت بين عائلتنا، وبين خالتي السيدة لور حداد، زوجة الرئيس الباغي، بشارة الخوري. كان الأمر أكبر من مجرد صراع داخلي بين أفراد عائلة واحدة.

كنت فتاة صغيرة في ذلك الوقت، لكني كنت أدرك أن الحياة قد تغيرت تمامًا منذ أن آمنت أسرتنا برسالة الدكتور داهش، الذي كان –عندما كنا نزوره في بيته مع عائلتي– ينظر بعينيه العميقتين إلى وجهي الحزين، فيعرف ما يدور بداخلي دون أن تتحرك شفتاي.

قبل لقائه بعدة سنوات، قررت أمي، بعد أن كبرنا، أن تمارس فن الرسم الذي كانت تميل إليه. فاشتهرت كفنانة، وأقيم للوحاتها معرض في جاليري جورج برنهايم بباريس في تشرين الأول/أكتوبر 1933، وقد ابتاعت الحكومة الفرنسية إحدى لوحاتها وهي لا تزال معروضة في متحف لكسمبورج بباريس.

كانت أشهر لوحات أمي هي لوحة "بدوية"، حيث يمكنك رؤية فتاة شابة مغطاة بالكامل بملابس تشبه ملابس الراهبات بلونها الأزرق الداكن، لكن ما لفت نظري في هذه اللوحة، هو ذلك الوشم ذو اللون الأخضر الموجود بين حاجبي الفتاة، الذي يصوّر نباتًا متعدد الأفرع، ويتكرر هذا الوشم –غير المفهوم– على ذقنها، وتمتد أفرع هذا النبات حتى شفتها السفلى. البدوية تميل برأسها بينما تُطل بعض خصلات من الشعر من أسفل منديل رأسها. فوق صدر فستانها هناك تشابكات على شكل صلبان حمراء اللون، يجب أن تدقق النظر حتى تعرف أنها صلبان، متداخلة وممتزجة ببعضها بعضًا.

في أقصى يمين الصورة يظهر بوضوح باللون الأبيض توقيع أمي على اللوحة: Marie Hadad.

لم تكن هذه البدوية تشبهني أنا أو أيًا من أخواتي. ورفضت أمي أن تُجيبني عندما سألتها مرة عن من تكون الموديل صاحبة اللوحة. لكنني بعد سنوات، وبالمصادفة اكتشفت هذا السر.

لا أنسى هذه الليلة، لأنها هي الليلة التي ذهبت فيها أمي وأبي لزيارة الدكتور داهش في بيته للمرة الأولى، بينما كنت أنا وأختاي -أندرة وزينا- نلعب معًا في انتظار عودتهما.

كنا نلعب لعبة الاختباء الشهيرة، وكان علينا -أنا وزينا- الاختباء، بينما على أندرة أن تبحث عنا. كنا في الحقيقة شابات مراهقات أكبر سنًا من أن نلعب هذه اللعبة، لكننا كنا في المصيف ولا نجد ما نفعله. وكان أبي يقلق علينا كثيرًا فيغلق الباب بالمفتاح من الخارج عندما يذهب مع أمي إلى إحدى الأمسيات.

كنا لا نذهب إلى هذا البيت، بيتنا الصيفي، إلا أثناء فصل الصيف. كان واسعًا مكونًا من دورين وكانت به خمس حجرات، لكن أنا وأختاي كنا ننام معًا في غرفة واحدة –لخوفنا– ولذلك كانت هناك ثلاث حجرات تترك خالية.

كانت إحداها تعتبر بمثابة مرسم آخر لأمي، إذا جاءها إلهام الفن، وكان من المُحرّم علينا دخولها، لذلك فكرت أن أختبئ بها.

تسللت إلى المرسم وأنا متأكدة أن أندرة لن يخطر ببالها أنني هناك. كانت الحجرة واسعة، خالية من الأثاث، فقط حامل اللوحات مع كرسيه العالي، ودولاب تضع فيه أمي ألوانها وفرشاتها. كيف فكرت أن أختبئ في غرفة خالية؟ يا لغبائي!

لم يكن أمامي إلا الدولاب، فاتجهت إليه على الفور وفتحته، كان هناك رف يقسم الدولاب من الداخل إلى نصفين، تكوّرت -على الرغم من امتلاء جسمي– حتى حشرت نفسي في النصف السفلي من الدولاب بعد أن أخرجت بعض علب الألوان خارجه، سأعيدها فيما بعد.

حاولت أن أكتم ضحكاتي عندما مر الوقت ولم تجداني. لم أشعر بالوقت داخل الدولاب حتى انتبهت على صوت أختيّ تناديان باسمي بقلق واضح، فأدركت أن اختفائي قد طال، حينها فتحت الدولاب وحاولت بصعوبة أن أخرج منه، شعرت بورقة تسقط تحتي، يبدو أنني كنت أجلس عليها دون أن أشعر.

نهضت واقفة بينما ساقاي تؤلماني، بعد أن مرت لحظات وخفّ الألم، بدأت في إعادة علب الألوان داخل الدولاب، فلمحت الورقة الملقاة على الأرض، كانت صورة فوتوغرافية مقلوبة على وجهها. أخذتها وقلبتها على الوجه الآخر.

كانت صورة غير ملونة لفتاة تقف بشكل جانبي، ترتدي ملابس بدوية، وتضع يدها اليسرى على وسطها وتنظر مبتسمة للكاميرا، هناك منديل يغطي شعرها وبعض الخصلات تسللت من أسفله. حينما نظرت إلى وجهها، شهقت "رباه! إنها ماري حداد، أمي".

كانت أكثر شبابًا في هذه الصورة، يبدو أنها كانت قبل زواجها. لكن لماذا كانت أمي تبتسم في الصورة، بينما عندما رسمت نفسها في لوحة بدوية كانت حزينة الوجه؟ هكذا كشفت السر.

أما اللوحة التي كنت أحبها بشكل خاص، فقد كانت تلك اللوحة التي رسمتها أمي وأهدتها إلى الدكتور داهش. ابتسامته حينها –كانت السعادة تظهر على وجهه على شكل ابتسامة، لم أره ضاحكًا أو مقهقهًا قط– أوشت بإعجابه باللوحة.

أجادت أمي في تصوير الدكتور داهش، لكني أعتقد أنها لم ترسمها من ذاكرتها، فهي تبدو منقولة عن الصورة الفوتوغرافية الوحيدة للدكتور، التي توجد في برواز من الخشب المذهب على مكتبه. نفس الرأس الذي ينظر إلى شيء ما جهة اليسار –بالنسبة للناظر– الأنف المستقيم، الذقن المدببة، شعر الرأس الأسود الكثيف، ونظرة العينين اللتين تنظران إلى ملكوت لا نراه. كان يقف مربعًا ذراعيه على صدره، يرتدي بذلة بنية اللون، يُطل من جيبها منديل بنفسجي اللون. كان جاكيت البذلة يبدو واسعًا بطريقة غريبة، وأيضًا لفت انتباهي شيء لم أفهمه في اللوحة، لقد كانت رقبة الدكتور أصغر وأنحف من كتفيه العريضين ورأسه بطريقة لافتة للنظر.

ثرى، ماذا أرادت أمي أن تقول في هذه اللوحة؟

كنا –كأي أسرة مسيحية– نذهب إلى الكنيسة كل يوم أحد كعادة. كنت لا أستطيع أن أمنع نفسي من التثاؤب أثناء القداس، سئمت سماع نفس الكلمات، ومتابعة نفس الطقوس الكنسية منذ طفولتي. لا جديد.

عندما كنت لا أتثاءب، كنت أتسلى بتأمل وجوه المصلين من حولي. أغلبهم كانوا من كبار السن، يبدو أن الشباب لم يحتاجوا إلى الرب بعد؟ كنت أعرف أن كاهن الكنيسة يهتم اهتمامًا خاصًا بعائلتنا. فعائلة "شيحا حداد" تاريخ كبير من العراقة والثراء والولاء للكنيسة. حتى خالي ميشال، الذي كنت لا أراه في الكنيسة إلا في مناسبات الأعياد، كانت أمي تقول إنه من أهم المتبرعين للكنيسة.

كنا ننتمي إلى كنيسة الآباء اليسوعيين، وعرفت من أمي ذات مرة، أن الدكتور داهش كان ينتمي –قبل رسالته– للكنيسة السريانية.

كنا نعيش حياة رتيبة، هادئة، كأسرة ثرية ذات حسب ونسب، كما يقولون، حتى آمنّا برسالة الدكتور داهش، وعندها بدأت مأساتنا.

كان لإيمان أمي ماري مع أفراد أسرتها ضجة كبرى في جميع الأوساط، فخالي ميشال غاظه أن تعتنق أخته الداهشية، فتكسر هكذا من عنجهية اليسوعيين ومن نفوذهم، فتآمر معهم على مهاجمة الدكتور داهش، وتشويه سمعته في جريدتهم "البشير"، فراحت الصحيفة الكاثوليكية تنشر الأخبار الملفقة ضد مؤسس العقيدة.

ولما سقط في يد ميشال، راح يحرض بشارة الخوري –زوج خالتي لور- على ذلك، وشاءت

الأقدار أن يتولى بشارة الخوري رئاسة الجمهورية اللبنانية في العام 1943، ونزولًا على رغبته، راحت الصحف في لبنان تنشر الأخبار الملفقة لتسويد صفحة الدكتور داهش وترفض في الآن نفسه نشر ردود الداهشيين على أكاذيبها.

لكن ماري تشبثت بعقيدتها وازداد إيمانها اضطرامًا.

دون أن تعرف أمي، قررت الذهاب لزيارة خالتي لور في القصر الرئاسي، وأرسلت لها رسالة بذلك، فأرسلت لي سيارة خاصة بالرئاسة لتقلّني. عندما وصلت سيارة الرئاسة أمام بيتنا، عرفت أمي كل شيء. كانت القطيعة بين أمي وأختها لور قد أصبحت كاملة. حاولت أمي أن تثنيني عن ذهابي، لكني أخبرتها ألا تخاف عليّ، إن لور هي خالتي قبل أن تصبح قرينة رئيس الجمهورية، وقرابة الدم لها حقوق.

لم تتعوّد أمي أن تفرّض رأيًا علينا، سواء أنا أو أختي، حتى عندما آمنت هي وأبي برسالة الدكتور داهش، لم تفرضها علينا، بل أخذتنا في زيارات متكررة إلى بيته، حيث تكلم هو معنا كثيرًا، دخل قلوبنا –أنا وأختي– وآمنا به عن اقتناع تام.

جلست في المقعد الخلفي للسيارة، وظل ذهني طوال الطريق يرتّب ويختار تلك الكلمات التي سأقولها لخالتي.

لم تكن علاقة عائلتنا بخالتي لور علاقة قوية، لأن زوجها، الرئيس بشارة الخوري، شق طريقه في السياسة منذ سنوات، بينما اتخذ أبي جورج حداد طريق التجارة وأعلن كرهه للسياسة.

كانت خالتي لور على العكس من أمي، عنيدة، متكبرة، وكانت ترتاح إلى ابتعاد أمي عنها وعن انشغال أمي بالرسم والكتابة، بينما كانت خالتي تحب تملق ووصولية خالي ميشال، وتحاول أن تساعده في أعماله وتجارته باستخدام نفوذ زوجها.

حتى ملامح خالتي لور كانت تختلف كثيرًا عن ملامح أمي، وجه متجهم، صارم، نحافة مع طول فارع، غلظة في استخدامها للكلمات.

أدخلني شخص ما –لا أعرف وظيفته بالضبط في القصر– إلى حجرة فسيحة للغاية، بها طقم صالون يبدو أثريًا، والمكان مليء باللوحات العالمية على الحوائط، والتحف والفازات التي تبدو باهظة الثمن في كل مكان.

بدأتُ أشعر بالتوتر، وبأن كل هذه الموجودات تضغط على صدري كالصخور؛ التي حكت لي صاحبتي المسلمة في المدرسة، أنهم كانوا يضعونها على صدر عبد اسمه بلال، لأنه آمن برسالة محمد.

بعد لحظات دخلت وصيفة تحمل صينية كبيرة عليها بزّاد مزخرف وفنجان، يحمل نفس الزخرفة، وطبق كبير فيه قطع من الكيك الذي أحبه، وضعته على منضدة صغيرة أمامي، وانصرفت وهي تهز لي رأسها باحترام.

لمَ تأخرت خالتي؟

بعد نحو عشر دقائق دخلت خالتي لور وهي ترتدي فستانًا مبهرًا يصلح للسهر أكثر من المقابلات الصباحية، وقفت لأقترب منها وأصافحها، لكنها توقفت مكانها وأشارت لي بيدها أن أجلس مكاني وهي تقول لي بلهجة باردة:

❞ - منذ متى لم أرك يا ماجدا؟

- مقابلتك لم تعد بنفس السهولة يا خالتي، أم أقول يا فخامة الرئيسة؟

جلست خالتي لور على مقعد وثير بعيدًا عن مكاني وهي ترد بهدوء:

- هل أتيت لمقابلة خالتك، أم فخامة الرئيسة؟

- خالتي بالطبع.

بدأت خالتي في الحديث على الفور، فهاجمت أمي التي ظلمتنا بأن أوقعتنا في شباك ذلك "النصاب المحتال" المسمى داهش –تغاضيت عن إهانتها لهادينا لأترك لها الفرصة للتعبير عن رأيها– وقالت إننا عائلة لبنانية عريقة، انتمى جدودنا منذ مئات السنين إلى الطائفة اليسوعية، فكيف نخرج عن المِلة؟

بعد أن انتهت من كلامها قالت:

- سأريك شيئًا يا ماجدا.

نهضت خالتي لور واتجهت إلى المكتب الفخم الموجود في صدر الحجرة، وأخذت أوراقًا كانت موجودة عليه ثم اتجهت نحوي وهي تمد لي يدها بالأوراق وهي تقول:

- اقرئي هذه المقالة، بالتأكيد لسنا نحن المحرضين عليها كما ستتهميننا، فهي مقالة قديمة نُشرت في حيفا سنة 1938.

أخذتُ منها الأوراق وقلبي يخفق، بينما عادت هي إلى كرسيها.

كانت الأوراق مصورة بالزنكوغراف عن افتتاحية للشيخ عبد الله قلقيلي في عدد يوم 5 نيسان/ أبريل 1938، من صحيفته "الصراط" التي أسسها في 1933 بحيفا، وفيها يشير إلى مداخلة كتبتها في عدد سابق السيدة فريدة يوسف قطان، التي وصفها قلقيلي بأنها "كانت إحدى ضحايا داهش" وفق تعبيره.

قال الشيخ في افتتاحيته:

"كنا نشرنا كلمة، لمنا فيها الصحف المروجة لألاعيب الرجل المعروف بداهش، وأشرنا إلى ما قالته فريدة؛ من أنه أرسل إلى ولدها، نصري، المقيم في السودان، يقول له إنه ميت، ولكنه حي بالروح. لذلك يستصرخه بالمروءة أن يترك أعماله التجارية في السودان، وأن يأتي إلى القدس

ليقرأ له تعويذة، فيرجع إلى الحياة. وصدق نصري هذا الدجال الفظيع، فترك شغله وجاء إلى فلسطين ليحييه هذا المشعوذ. وكانت نتيجة ذلك أن يقع في الشراك ويفقد أمواله".

شعرت بالغضب يفور بداخلي من تلك الافتراءات التي يشنها رجال الدين على هادينا، وشعرت بوجهي يلتهب احمرارًا، وحاولت أن أتمالك نفسي، وبدأت أحكي لخالتي بعض من المعجزات الروحية التي شاهدتها بعينيّ، بصحبة مجموعة من كبار علماء وشخصيات المجتمع اللبناني، تعمدت أن أذكر لها هذه الشخصيات دون أن أسميهم بالاسم خوفًا عليهم من البطش.

بدا الضيق على وجه خالتي بعد خمس دقائق من حديثي، وقاطعتني تقول:

- تكلمت عن أشياء محسوسة شاهديتها بنفسك، ماذا تقصدين بالأشياء المحسوسة؟

- أقصد الأشياء التي تُدرك عن طريق الحواس.

- هل تعتبرين أن الله أو الفضيلة أشياء حسية؟

- الوجود شيء، والوجود المُدرك شيء آخر.

قالت خالتي بسخرية وهي تنهض واقفة لأفهم أنها تُنهي المقابلة:

- أنتِ ترددين كلامًا لا تفهمينه.

وقفت وأنا أسألها مباشرة:

- في لبنان أكثر من طائفة دينية، فلمَ لا تقلبين طائفة الداهشيين أيضًا؟

- فلينتمِ كل فرد من اللبنانيين إلى أي طائفة أراد، لكن ليس أنتم، ليست عائلة قرينة رئيس الجمهورية.

رجعت أكثر همًا وحزنًا، ولما ذهبنا لمنزل الدكتور داهش في الأسبوع التالي، فاجأني بأجمل هدية في حياتي، هدية مسحت كل همومي، حيث أهداني نسخة من كتابه "ضجعة الموت أو بين أحضان الأبدية".

قضيت تلك الليلة ساهرة في شرفة البيت أقرأ بنهم، حتى طلع نهار اليوم الجديد. كنت أتفحص وأتأمل كل حرف، كل كلمة، كل جملة كتبها الدكتور داهش.

الغلاف قاتم اللون، بني غامق كئيب، يحتل العنوان أغلب الغلاف بينما هناك رسمة صغيرة تحته تمثل فتاة تُمسك في يدها قيثارة تسندها على جانبها الأيسر، وتعزف عليها، بينما بجوار قدمها هناك غزالة ترفع وجهها إلى عصفورين يطيران فوق رأسها كأنهما متجهان إلى رأس الفتاة.

أعلى الركن الأيمن من الغلاف "الدكتور داهش بك".

في هذا الكتاب نماذج متعددة من رسوم فنية ممتعة من بينها خمسة وخمسون رسما رسمها

الفنان الإيطالي "موريللي".

توطئة الكتاب:

"ولا يعرف أسرار الوجود من لم تتكأكأ عليه حادثات الزمن فتصهره بنيرانها المُحرقة المُذيبة، فيتضح بعد ذاك في بوتقة الحياة من اختبارات الزمن القاسي، ولا يعرف معنى السعادة من لم ينزف دموعه الهاطلة الصادرة من قلبٍ كليمٍ ذاوٍ من شقاء الأيام الطويلة وحادثاتها التي تألبت عليه.

وعندما لا يبقى للنفس طاقة على احتمال أوجاع الأيام، وويلاتها المُتزايدة، وبعدما تبلغ الروح الترياق، تطلب بعد ذلك الموت، وتستطيب لقاءه دون أي وجل.. وبرغبةٍ صادقةٍ جامحةٍ لايعترضها أي معترض، ولا يقف أمامها حائل، فتصقل الأيام بعد ذلك العذاب المُحصن، ذلك المتألم.. وتُعلمه أسرار الحياة وغايتها الخفية المجهولة.

ولو بكى أي من بني البشر كما بكيت.. وبلا ما بلوت، وقاسى مثل ما قاسيت، لغفر له الله أكبر الخطايا.. نعم، إن الله ليغفر له أي أمرٍ لو تألم تلك الآلام التي تألمتها نفسي المُنسحقة، التي لم تعرف من السعادة غير اسمها.

إن جسمي أضعف من أن يحتمل صدمات الحياة العنيفة التي هدمت كياني، وكادت تقضي عليَّ.

بالآلام نفسي، أكتب الآن هذه السطور.

وبتأثري البالغ، أخطّ ما أخطهَ.

وبحزني الشديد المُتزايد، أشرح ما أريد شرحه.

وبدموع عينيّ الفياضتين أغمس ريشتي هذه.

وبخفقات قلبي الهائم، أعبرّ عما يجيش في نفسي من آلام وآمال.

إن قلبي يخفق بالحب للجمال، ومن أدرك سر الجمال، فإنه قد خطا خطوات واسعة في فهم أسرار الأزل والخلود.

ومن كان بعيدًا عن حب الجمال، فإنه لا يفقه معنى الحياة، ولا النهاية المجهولة، فالحب يفتح مصراع ما أغلق فهمه على بني البشر، نعم هو الحب لا غير.

أما الرؤيا الغريبة هذه التي كتبتها فلم تكن إلا صورة لحالات وتغيرات طرأت عليَّ.

لقد كتبتها وأنا تحت سلطان قوة قادرة قاهرة، غير منظورة، أو كانت توحي إلى ما أسطره، فأصورّ ما يكمن في أعماق أعماق نفسي من آلام مرزحة مُضنية، وأفراح مُبهجة سارة.

إن لمس تلك الأنامل السحرية التي شعرتُ بها عندما كتبت هذه السطور، لا تزال تؤثر في

نفسي، وتُثير استغرابي، فتخفق روحي في داخلي مضطربة مهتاجة".

***

بعد أن انتهيت من قراءة الكتاب يمكن القول: إن الكتاب "رؤيا" ملهمةٌ حافلةٌ بالرموز تدور على الحبِ والجمال الإلهيين، وأسرارِ الأزل والخلود والغبطة السرمدية. وقد صدر في مطلع عام 1936.

قيل في الكتاب عند صدوره: "لو عاد شكسبير إلى الحياة، لما طبعت له دولة بريطانيا كتابًا يشابه طبع كتاب "ضجعة الموت"".

لم أهنأ بهذه السعادة طويلًا، حيث كانت المفاجأة في الأسبوع التالي أنهم لجأوا إلى محاولة اغتياله، لكنهم فشلوا وحماه الرب.

بعد أن نجاه الله من خياناتهم، تجمّع محبوه في بيته، صحبنا الدكتور إلى حديقة منزله بعد أن أعطى كلًا منا خمس حبات من المشمش –الخمسة هو رقمنا المقدس– بينما رأيته هو يأخذ حبة واحدة فقط.

كان يمشي صامتًا، وكنا نتحرك حوله، أمي وأبي وأختاي، أندرة وزينا وكان معنا –ويستطيع من لا يصدق ما أقول أن يسألهم عما حدث– الدكتور جورج خبصا، والشاعر حليم دموس، وأحد القضاة المشهورين الذي طلب ألا نذكر اسمه، خوفًا من بطش بشارة الخوري.

فجأة توقف الدكتور، ورأيته يأكل حبة المشمش ثم يُمسك بالنواة في يده ويرفعها أمام وجهه، ثم إنه أصدر "أمرا" لنواة مشمش رماها في حديقة منزله وقال: "بحق الله تحوّلي إلى شجرة مثمرة".

فاشرأب الجذع وارتفع بأغصانه في الحال شجرة أزهرت بثوانٍ، وأثمرت أمامنا وأمام الآخرين فأكلنا المشمش منها، وكان من أطيب ما ذقنا، ولا تزال الشجرة قائمة في الحديقة حتى اليوم.

يومها، ذهب الدكتور إلى المطبخ فتسللت خلفه دون أن أشعر أو أفكر، وجدته في المطبخ يشرب كوبًا من الماء، وقفت على باب المطبخ صامتة في خشوع وقلبي يدق في صدري كطبول قبيلة أفريقية. دون أن يلتفت إليّ، رأيته يضع الكوب من يده ويقول لي:

- في صدرك سؤال يا ماجدا.

- لماذا أنت؟

التفت إليّ ورمقني بنظرته الثاقبة التي كانت تشيع الرجفة في أوصالي -رجفة الحب

والإخلاص والإيمان- وقال بصوته الهادئ:

- يقول القرآن: رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق (سورة غافر، الآية .(15

شعرت بالذهول، فهذه هي المرة الأولى التي أسمع فيها هادينا يستشهد بكتاب المسلمين المقدس.

ظل لدقائق يحدثني بحديث، أفضّل أن أحتفظ به لنفسي حتى حياتي الأخرى.

وبعد أن انتهى حديثه الشيق، دعانا للخروج إلى الشرفة، فخرجنا معه، حكى لنا –باختصار– قصة النبي نوح، وكيف ظل يدعو قومه قرابة ألف عام دون أن يستجيبوا له، ثم عرج على حكاية الطوفان، وقال إن الزمن لا ينتهي، لا يوجد ماضٍ ولا حاضر ولا مستقبل، فالثلاثة تمتزج معًا في "سيال" واحد، لكن غير مسموح لنا إلا بمعايشة تلك اللحظة التي نعيشها فقط، ثم قال لنا؛ إنه لما انتهى الطوفان، أرسل النبي نوح حمامة لتتأكد إذا كان الماء قد زال من الأرض أم لا، وأن هذه الحمامة طارت لفترة، ثم عادت إليه وهي تحمل في قدميها عودًا من نبات أخضر.

ثم التفتَ لنا وسألنا إذا كنا نرغب في أن نرى هذا.

تبادلنا نظرات الذهول، ولا أذكر مَن الذي رد بالموافقة. لقد كان صوت رجل ما لم أتبينه.

التفت الدكتور داهش بجسمه مواجهًا الاتساع الذي يواجه البيت، رفع يده اليمنى، وحرك أصابعه في اتجاه السماء بحركة معقدة، كانت عيوننا معلقة بالسماء حيث أشار، وصمت مرعب يُخيم علينا.

فجأة ظهرت سحابة بيضاء في السماء الصافية، ارتجف جسدي الصغير عندما رأيت شيئًا ما ينفصل عن السحابة ويقترب منا، بعد لحظات بدأ هذا الشيء يتبين باقترابه منا. كان حمامة بيضاء ترفرف في اتجاهنا. كنا جميعًا مسمَّرين في أماكننا كالتماثيل، في لحظات كانت الحمامة ترفرف أمام أعيننا مباشرة. لو مد أحدهم يده لأمسكها. حمامة بيضاء، مبللة الريش، تحمل في قدميها غصنًا أخضر. ظلت ترفرف أمام أعيننا لخمس دقائق قبل أن يُشير لها الدكتور داهش بيده، فهبطت لتقف على كتفي. ارتجفتُ وأنا أشعر بالحمامة بثقلها على كتفي، لم يطل الأمر، إذ انطلقت الحمامة وابتعدت محلقة حتى امتزجت مرة أخرى بالسحابة البيضاء. وتحركت السحابة البيضاء إلى الأفق البعيد حتى اختفت عن أعيننا المذهولة وقلوبنا الواجفة.

في الأيام التالية، قرأت في جريدة "الأفكار" مقالة لأحد الصحفيين جاء فيها:

"يقول الصحفي إنه سعى للتعرف إلى الدكتور داهش، الذي لم يدخل مدرسة إلا لشهرين وهو طفل في ميتم ببلدة غزير اللبنانية، لكثرة ما ملأ الدنيا وشغل الناس، ولما سمعت عن قيامه بخوارق، ذهبت مرة إليه أتحداه في البيت، فوضع له داهش رزمة أوراق بيضاء على طاولة، وفوقها وضع ورقة من فئة 100 ليرة لبنانية، ثم قال: سأحوّل كل ورقة تحتها إلى عملة من فئة 100 ليرة أمامك، فانظر.

إلا أن رزمة الأوراق بقيت كما هي تماما برغم محاولة ثانية أجراها، وهو يتصبَّب عرقًا أمامي".

شعرت بالغضب الشديد، وبدأت فكرة الانتقام تخطر بذهني. أخبرتنا أمي أنها كتبت ردًا وأرسلته إلى الجريدة، انتظرنا أيامًا لكن لم يُنشر.

وتتابعت الأحداث المرعبة.

ففي الثامن والعشرين من شهر آب/أغسطس من العام 1944، دبروا مؤامرة اعتقل على إثرها الدكتور داهش، وأوقف في سجن الرمل خمسة عشر يومًا، أعقبها الرئيس بمرسوم تجريد رجل الروح من جنسيته اللبنانية، وإبعاده عن وطنه في التاسع من شهر أيلول/سبتمبر بدون محاكمة.

هالني مصير هادينا، فصممت على قتل الرئيس بشارة الخوري، كان ذلك سهلًا عليّ لأنه زوج خالتي، فاخترت مسدسًا من أجل تنفيذ غايتي، ودبرت الخطة في رأسي على مهل.

سأرسل رسالة إلى الرئيس، أطلب إليه –باسم القرابة وصلة الدم– أن يسمح بمقابلتي، وأن يتعامل معي كابنته، وأن يسمح لي بلقاء قصير معه أشرح له فيها حالي وما أعانيه. أثق أنه سيخبر خالتي لور بهذا الأمر، لم أكن أخشى أن ترفض أو أن تقابلني هي بدلًا منه، فأنا أعرف مدى عنجهيتها، فهي لن تسمح لفتاة صغيرة غِرة مثلي بأن تبدد وقتها معها.

في الأغلب سيوافق الرئيس، لكن ليس على الفور، ربما سيتركني في شوقٍ وتطلعٍ إلى إجابته لأسابيع.

وسأكون مستعدة، سيرسلون لي سيارة الرئاسة كالمرة السابقة، سيكون مسدسي الصغير جاهزًا ومخبأ في تنورتي، لا يفتشني الحراس عند دخولي إلى قصر الرئاسة، فأنا –رسميًا– واحدة من أفراد الأسرة الحاكمة. أنا ابنة أخت فخامة الرئيسة لور.

سأنتظره في المكتب، عندما سيدخل سأقترب منه وأنا أرسم علامات الشروع بالبكاء على وجهي، سأتحرك نحوه كأني سأرتمي بين أحضان زوج خالتي الحنون، ستكون يدي اليمنى داخل تنورتي تقبض على المسدس. عندما أصبح على بُعد ثلاث خطوات منه، سأنتزع المسدس، وأطلق النار على قلبه من هذه المسافة القريبة، حتى أضمن ألا تطيش رصاصاتي.

أشعر أني ريح تهب وتدور في زوبعة من الأفكار.

سأطلق عليه خمس رصاصات.

قبل أن أصوِّب فوهة المسدس –برصاصته الأخيرة- إلى صدغي، فما يأتي لا يمكن إيقافه، ستكون كلماتي الأخيرة إلى هذا العالم هي كلمات هادينا الدكتور داهش:

أنا غريب في هذا العالم، وكم أحنّ إلى تلك الساعة التي أعود فيها إلى وطني الحقيقي.

تعقيب المؤلف:

(لا أعرف إذا كانت تعقيباتي في نهاية الفصول ستنشر مع الرواية أم لا)

خرجنا من بهو الفندق، وجدت فاطمة تتجه إلى سيارة حديثة صغيرة وتفتح بابها، فكرت أنها من عائلة ميسورة الحال، جلست إلى الكرسى المجاور لها، قبل أن تتحرك بالسيارة، مالت بجذعها إلى المقعد الخلفي، والتقطت كيس هدايا عليها شعار أحد أنواع أجهزة المحمول العالمية الشهيرة، ثم اعتدلت ووضعتها على فخذيها، وأخرجت منها علبة جهاز هاتف محمول وقالت:

- هذا هاتف محمول جديد، وبه خط لبناني حتى يمكنك التواصل معي في أي وقت.

ثم أعادت الجهاز إلى الشنطة وناولتني إياه وهي تقول:

- اشتريت لك رواية أيضا، أخبرتني في مصر أنك لا تنام قبل أن تقرأ في كتاب.

انطلقت فاطمة بالسيارة، بينما أخذت منها الحقيبة، وأخرجت الكتاب باهتمام، وجدته رواية (البئر الأولى/ لجبرا إبراهيم جبرا)

قالت لي أثناء الطريق:

- أتمنى ألا تكون قرأت هذه الرواية من قبل؟

كان بداخلي قلق ما، حاولت التعبير عنه بشكل مرح:

- جهاز محمول جديد، وخط لبناني، رحلة إلى لبنان، منحة سخية، وشابة جميلة، سأبدأ في الشك أنك من الموساد!

أطلقت فاطمة ضحكة صادقة مرحة وهي تقول:

- مسلسلاتكم المصرية عن الجاسوسية أصبحت في جيناتكم.

كان شيء ما قد استيقظ بداخلي بالفعل. شك، من يدفع بهذا السخاء من أجل كتابة رواية؟ إذا اعتمد أشهر أدباء عالمنا العربى على كتاباته سيموت من الجوع!

حتى نجيب محفوظ، ظل يعمل موظفًا حتى سن المعاش. قفزت إلى ذهني فكرة قررت تنفيذها فور عودتي إلى الفندق، سأبحث عن عنوان ورقم هاتف السفارة المصرية ببيروت، فمن يعرف ماذا سيحدث معي فيما بعد؟

أفقت على صوت فاطمة تسألني:

- أعجبتك شوارع بيروت؟

يبدو أنها فسرت صمتي بأنني أتأمل الشوارع التي نمر بها.

قلت بحماس:

- عندما أكتب الفصل الأول من الرواية، سأرسله لك على بريدك الإلكتروني لتقرئيه.

قالت فاطمة بسرعة وحسم:

- لا تفعل. لن نقرأ كلمة واحدة من الرواية حتى تنتهي منها.

قلت بغيظ:

- وإذا كتبتها وكانت لديكم ملاحظات أو تحفظات، هل سأضيع

الوقت والجهد في إعادة كتابتها؟

- لن نتدخل. نحتاج إلى نص الرواية كما تراها أنت.

أكره الجدال الطويل، لذلك أردت تغيير الموضوع فسألتها:

- هل تذكرين الإعلانات التي قرأتها عن حفلات الدكتور داهش في مصر؟

بدا الاهتمام على وجهها، وأومأت برأسها إيجابًا، استطردت:

- من تكون مساعدته إنطوانيت؟ هل يمكن أن تكون هي أخته الصغرى؟

- وكيف عرفت بأمر أخته؟

- قرأتُ عنها سطرًا واحدًا أثناء بحثي في الإنترنت عنه.

بدا الضيق على وجهها وقالت لي بلهجة عتاب:

- ألم نتفق ألا تأخذ معلوماتك من الإنترنت؟

انتبهت في هذه اللحظة فقط للخطأ الذي وقعت فيه، فأردت أن أغيّر الموضوع مرة أخرى فقلت:

- أين سنذهب الآن؟

- إلى المكان الذي ستبحث فيه عن إجابات.

* * *

توقفت السيارة بمنطقة قالت إن اسمها "زقاق البلاط"، وقفنا في مواجهة بيت قديم الطراز، كئيب المنظر، سألتها:

- هل هذا هو بيته؟

أومأت فاطمة برأسها بالإيجاب، ثم قالت:

- هل ندخل الآن؟

- بل اتركيني وحدي لبعض الوقت.

توقعت أن تنظر لي فاطمة كمجنون، لكنها هزت رأسها ببساطة أجزم أن فيها شيئًا غريبًا. كيف تتفق معي وتفهمني إلى هذا الحد؟ فتحت باب السيارة وخرجت منها بينما ظلت فاطمة في مكانها. وقفت أتأمل هذا البيت المكون من دورين، كان هادئًا، مغلق النوافذ، يبدو أشبه بالمنازل المسكونة في الأفلام الأجنبية.

تسلل شعور كئيب إلى قلبي وأنا أنظر إليه. المنزل على هيئة مستطيل، له باب من الحديد.

يتكون من طابقين متشابهين. هناك شرفة ثلاثية المشربيات مغلقة تتوسط كل طابق، يُحيط بها من الجانب الأيمن شباكان طوليان مغلقان، ومن الجانب الأيسر شباك مماثل مغلق، ثم كوَّة صغيرة في الحائط.

الشرفتان (كل منهما مقسمة إلى ثلاث مشربيات متلاصقة في تصميم معماري شاذ)، شرفة الدور الثاني محطمة الشيش، وتبدو مهجورة، بينما شرفة الطابق الأول مغطاة من الداخل بستائر بنية قديمة حائلة اللون وسميكة بطريقة لافتة للنظر. الغريب أن جدران هذا المنزل محطمة في أكثر من مكان، كأنها أصيبت بقذائف أو طلقات رصاص تركت آثارها في الجدران.

وتذكرتُ الحرب الأهلية اللبنانية، وفكرت إذا كانت هذه من آثارها، لماذا لم يتم ترميم البيت طوال هذه السنوات؟

ملت على شباك السيارة لأسأل فاطمة:

- تقولين ندخل؟ إن البيت مهجور.

- عندما تكون مستعدًا للدخول، فقط أخبرني يا سامح.

اعتدلتُ لأتفحص الشارع باهتمام، كان شارعًا ضيقًا، وإن لمحت بعض المحال القديمة الطراز.

عدت أسألها:

- هل يمكن أن أتحدث مع أصحاب المحال؟

مكتبة بيت الحصريات
maktabbah.blogspot.com

الفصل الثاني

قصة تقمص

زينا حداد

من ينصره الله لا غالب له

إن جميع أعداء داهش سوف ينكسرون

وأحطّ ما في انكسارهم هذا، أنهم سوف يحملونه إلى قبورهم

لأن هذه الجريمة لا تتلاشى في الهواء

ولا تذوب عناصرها في الفضاء

فهي ترافق مرتكبيها، ملتصقة بهم، مندمجة بخلاياهم

فتذكر كلما ذكروا، ويُذكرون كلما ذُكرت

فهم وهي عظة وذكرى للأجيال القادمة

جبران مسوّح

نُشرت في مجلة "المختصر" الصادرة في بوينس آيرس العدد 10 من السنة الأولى، أيلول/سبتمبر 1946

* * *

لماذا نتمسك بالحياة بقوةٍ مقاومين خسارتها؟ هل هو الخوف من المجهول؟

لِماذا لا نُفكر يوميا بما يُمكن أن يحدث لنا بعد موتنا؟

إن أولئك الذين يفكرون ويتحدثون منا عن هذا الموضوع، يقوم آخرون بانتقادهم على أنهم ذوو وِجهة نظر سلبية، وبأنهم مهووسون أو مكتئبون، أو أنهم يُعانون من أمراض نَفسية.

هَل نحن موجودون حقا؟ هل كل ما نراه في الحياة حقيقي؟

ما هو الواقع؟

كانت أكثرنا حزنًا بلا سبب واضح، حتى في الصور التي جمعتنا –كشقيقات– كنا أنا وأندرة نبتسم بينما تظل ماجدا مضمومة الشفتين. هل كانت تتوقع نهايتها المأساوية؟ كانت تحب أن ترتدي الفساتين الداكنة –حتى قبل أن نتعرف بالدكتور داهش ونعرف ميله المشابه لميلها– مع أنها شابة صغيرة.

إذا مرت مائة سنة على فراقها، لن أنسى أبدًا وجهها المستدير، الأبيض الأملس، وعينيها الصغيرتين، حاجبيها الرفيعين، أنفها المستقيم، وفمها الصغير المضموم المزموم بجدية غريبة. كان شعرها كستنائيًا طويلًا لكنها كانت ترفض أن تتركه مفرودًا على الرغم من محاولات أمي المتكررة لإقناعها بذلك.

كانت تمشّطه إلى الجانب الأيمن من وجهها، صانعة مفرقًا واسعًا على الجهة اليسرى، ثم تجمع أطراف شعرها في ضفيرة كبيرة، تُعيد لفها حول رأسها وتُثبتها بدبابيس قوية. كانت أمي بحسها الفني كرسامة تقول لها:

- تظهرين كأنك تجاوزتِ الثلاثين من عمرك يا ماجدا، على الرغم من أنكِ بالكاد بلغت العشرين؟ حتى أنا أحيانًا أبدو أصغر منكِ.

كانت ماري حداد أمي هي أجملنا، ورثت أنا وأختاي "بعض" جمالها وليس "كله" وإن كانت ملامحها قد تبدلت كثيرًا بعد انتحار ماجدا

كانت ماجدا بطبعها لا تحب الكلام، وكنا قد تعودنا على صمتها، لكن لم يخطر ببال أحدنا أنها كانت تخطط لجريمة. ولولا الدكتور داهش الذي أرسل لنا من منفاه الإجباري رسالة إلى أمي، يُخبرها أن ماجدا قد أرسلت إليه رسالة تخبره فيها عن خطتها لقتل الرئيس بشارة الخوري، وأنه نهاها عن ذلك وطلب منها أن تعده بألا تفعل. يبدو أن رسالته عندما وصلتها، كانت قد اتخذت قرارًا متسرعًا بأن تكون الطلقة التي أطلقتها على صدغها، هي أكبر صرخة احتجاج على الظلم الذي تعرض له الدكتور داهش.

بالمناسبة أذكر أني سألت أبي ذات مرة عن سبب تغيير اسم هادينا من سليم العشي إلى داهش، فأجابني أنه لقب أطلقه عليه أحد الصحفيين، لأن أفعاله خرقت الطبيعة.

كنا نعيش في تلك الأيام أحزانًا تفوق الوصف، وصدمات متتالية بدأت لمّا تسلّم بشارة الخوري مقاليد السلطة، حيث باشر حملة منظّمة ضده يؤيده فيها فئة من رجال الدين المسيحي.

حاول بشارة الخوري، أولًا، النيل من الدكتور داهش بطريقة قانونية، فسنّ قانونًا يمنع بموجبه "مناجاة الأرواح"، لكن مجلس النواب رفض التصديق عليه .

عندئذ استعان بإحدى المنظمات السياسية الطائفية للاعتداء عليه، وعندما فشلوا، ألقي القبض على الدكتور داهش بطريقة غير مشروعة، وذلك في 28 آب/أغسطس 1944. فأودع السجن بلا مبررٍ قانونيٍ ولا محاكمة حتى 8 أيلول/سبتمبر .1944

وفي فجر اليوم اللاحق أبعد إلى "حلب"، ثم إلى "إعزاز" -على الحدود السورية التركية- وذلك

بعد أن أصدر بشارة الخوري مرسومًا يجرّده فيه اعتسافًا من جنسيته اللبنانية.

ولم يكتفِ بذلك، بل سلّط ضده وسائل إعلام الدولة ليسوّد سمعته تجاه الرأي العام، من غير أن يسمح له بحق الرد على مُفترياتها. كما كلّف أربعةَ صحافيين، فألّفوا أربعةَ كتُب ضده شحنوها بالمُختلَقات الكاذبة.

كما أشاع هؤلاء الصحفيون المأجورون أن ماجدا انتحرت، لأنها عرفت أن أختيها أيضًا واقعتان في غرام داهش!

أي أكاذيب وأي حقارة!

أجزم أن هذه الأفكار الخسيسة أفكار خالي ميشال، بعد أن تركت له خالتي –وكم آسف أن أطلق عليها هذا اللفظ الإنساني– حرية تشويه عائلتنا.

كنا عائلة مكلومة أصابنا فقْد هادينا، ثم أختنا الشابة في صميم قلوبنا، لكن تلك المحن لم تُفقدنا إيماننا بأن ماجدا تقطن الآن الفراديس الإلهية.

نشرت جريدة الحياة البيروتية بتاريخ 16 شباط/فبراير 1945، حوارًا أجراه أحد الصحفيين مع أمي بعد مأساتنا جاء فيه:

السيدة ماري حداد، أديبة ورسامة، مؤلفاتها الفرنسية ورسومها الزيتية معروفة، ومنزلها في بيروت عبارة عن تحف أثرية مختلفة ومجموعة نفيسة من صورها النادرة.

ومنذ عامين ونيف، اعتنقت مع زوجها وأسرتها المذهب الداهشي بعد أن شهدت من الظاهرات الروحية والخوارق الداهشية ما دفعها إلى تأليف كتاب فرنسي فريد في بابه وفي أسلوبه دعته: "كيف عرفت الدكتور داهش" أو "وثائق تتكلم"

وعلى إثر الفاجعة التي أصابتها بفقد كريمتها ماجدا، عادت إلى تدوين مذكراتها في خلوتها.

وإلى قراء "الدنيا" ترجمة مقالتها الفرنسية، قالت في بداية الحديث:

أجمعت آراء المفكرين من الناس أن في الحياة أسرارًا عظيمة ومفاجآت كثيرة، غير أن تلك الأمور الغريبة تُعد لا شيء إزاء العجائب الحقيقية التي شهدتها بالأمس، ونشاهدها اليوم وغدًا وإلى ما شاء الله.

س: ماذا تقولون عن الانتحار بصورة إجمالية؟

ج: لا شك أن الانتحار ممنوع، أما بخصوص ابنتي فإن موتها هو "فعل إيمان"واحتجاج صارخ على الظلم البشري، فالانتحارات إذن متنوعة لا تشبه بعضها بعضا. لقد ماتت ابنتي زاهدة بأعراض الأرض الفانية غير الأبدية. لهذا السبب وضعنا لها هذه العبارة السامية من كلمات مؤسس المذهب الداهشي: "أنا ظلّ سرعان ما يطوف في وادي الحياة ويتلاشى، والموت يقظة فتانة يحن إليها كل من صفت نفسه، وسمت روحه ويخافها من كثفت أفكاره وكثرت أوزاره".

ثم أعلنت الجريدة أنها ستنشر الفصل الأول من مذكراتها في اليوم التالي. وبالفعل في العدد التالي كانت هناك نصف صفحة تحتل صورة أمي ركنها الأيسر، بينما بدأت مذكراتها بالتعريف عن نفسها بصيغة الغائب:

ولدت ماري حداد في 9 آذار/مارس عام 1884، كان والدها أنطون شيحا، من الأثرياء، فهو صاحب بنك وكان على المذهب السرياني، لكنه تحوّل إلى المذهب الكاثوليكي اللاتيني بفعل علاقة أسرته الوثيقة باليسوعيين، وقد رُزق والدها ست بنات -كانت ماري الرابعة بينهن- وصبيين هما: ميشال صاحب جريدة "لو جور" الصادرة بالفرنسية في بيروت، وزوج مرغريت فرعون، شقيقة هنري فرعون.. وجوزيف.

أما شقيقاتها فهن: لور (زوجة الرئيس اللبناني بشارة الخوري)، أليس، أديل، ماتيلدا.

توفي أنطون شيحا في سن الحادية والخمسين، مخلفًا عائلة كبيرة لكن ميسورة، وبما أن زوجته كانت مريضة ومناخ بيروت الرطب لم يكن يلائمها، فقد اضطرت إلى الإقامة في الخارج أكثر الأحيان، ولذا أدخلت ماري وأخواتها مدرسة سيدات الناصرة، حيث كن تلميذات داخليات، وبما أن المدرسة كانت فرنسية، فقد أتقنت ماري فيها اللغة الفرنسية، في حين أن العربية أهملتها لأن البرامج المدرسية لم تكن حافلة بها.

تزوجت شقيقتها ماتيلدا بوديع حداد، فأعقب ذلك زواج ماري بشقيقه جورج حداد، التاجر المعروف والقنصل الفخري لرومانيا بلبنان حينئذ، رُزقت ماري ثلاث بنات، ماجدا عام 1916 ، وأندرة عام 1919، وزينا .1922

كنت أفهم أن أمي كتبت هذه المقدمة بصيغة الغائب، لأنها كانت تعتبر أن ماري؛ التي كانت قبل اعتناق الداهشية، شخصية أخرى وكيانًا آخر غير كيانها الآن. لذلك انتقلت بعدها إلى الكلام عن نفسها فكتبت:

منذ عامين سمعنا عن الدكتور داهش من أحد أصدقائنا، الأمور التي أخبرنا عنها أدهشتنا.

فقلنا في أنفسنا: أترى صديقنا يخترع ما يقول؟

ظننا ذلك، لأن الذي رواه يكاد لا يُصدق، لكنا أحببنا أن ندرس المسألة بأنفسنا.

وحدث أننا كنا ذات يوم في مستشفى الدكتور رزق، فأحببنا أن نزور الدكتور داهش في منزله القريب من المستشفى. نظرنا إليه، فإذا هيئته ليس فيها شيء غير اعتيادي، لكن الملاحظ الدقيق تستوقفه نظراته العميقة.

أما كلمات أحاديثه القليلة فتدفعك إلى الانتباه، فهي بسيطة صافية ولا تنطق إلا بالحقيقة.

ويوم زرناه كان الدكتور جورج خبصا، طبيب الأمراض الجلدية، في زيارة له، فطرحت عليه بعض الأسئلة، فأراح أفكاري بحجته المتينة وذكائه، وأصبحت أعتبر كل شيء عن الدكتور داهش صحيحًا، لأن للدكتور خبصا نظرة صائبة، وهو شاهد عيان وملاحظ ناقد.

وجميع ما سمعناه بعد تلك الزيارة يستدعي فضولية المفكرين، طلبنا أن نحضر جلسة روحية فوعدنا بذلك.

بواسطة الدكتور داهش، كنا باتصال مع عوالم غير عالمنا الأرضي، والأرواح التي تحتل جسمه تعطينا براهين دامغة عن حقيقتها لقيامها بمعجزات لايستطيع الفكر البشري تحليلها وتعليلها.

إن الاكتشافات المعطاة بالجلسات الروحية، أفهمتنا حقيقة أصلنا، وذكّرتنا بما قاله الشاعر فكتور هيجو: الإنسان إله ساقط يتذكر السموات.

لكن القدر كان يدخر لنا مفاجأة أكثر قسوة. فقد بدأت بيروت تستيقظ كل يوم على منشورات تملأ طرقاتها تهاجم الرئيس بشارة الخوري، وتفضح مخازيه.

قُبض على أمي وأبي وأودعا السجن، وعرفت بعدها أن الدكتور داهش قد نجح في العودة –خلسة– إلى بيروت.

لا أريد أن أتذكر هذه الأيام التعسة الآن، لكنها انتهت على أي حال، ولم تتبق منها إلا غُصة في القلب، ومواقف لا أنسها.

لا يزال كل ما مر بي مع الدكتور داهش منقوشًا في ذهني المغضّن الذي أهلكته السنون. محيت من ذاكرتي بشارة الخوري، وخالي ميشال وخالتي لور وكل من أساؤوا إلينا. لم يتبق في ذهني مكان إلا لإخوتي الداهشيين.

مما أذكره عن هادينا الحبيب، أنه كانت بيننا جلسات دارت أمام زواره الكثيرين، وأذكر منها دخولي مرة إلى بيته بصحبة أمي، حيث اجتمعنا معه في غرفة كان فيها وحيدًا، بينما كان الزائرون في الصالون.

كانت غرفة معتمة بعض الشيء، وعلى أحد جدرانها رأيت لوحات زيتية جميلة، فسألته: "من أين هذا كله يا دكتور؟".

فرد مشيرًا إلى إحداها: "هذه مثلا جئت بها اليوم من متحف بوسطن الأميريكي في الولايات المتحدة، لكني سأعيدها بعد قليل إلى هناك، لكي لا يعتقدون غدًا بأنها سُرقت. أحببت أن آتي بها فقط للتمتع بمشاهدتها".

ثم التفت إلى أمي وقال لها بصوت حنون: "ما رأيك يا ماري؟".

انتبهت إلى أمي فوجدت وجهها قد التهب احمرارًا، بينما تركز كل انتباهها على اللوحة، كانت تنظر إليها بعشق حقيقي، اقتربت أمي من اللوحة بخطوات بطيئة هيابة وهي تردد اسم الفنان الذي تعرفته على الفور: "أميديو موديلياني!".

كان الدكتور داهش يبتسم لها بحنان، وخفق قلبي حبًا وامتنانًا وعرفانًا بهذا الرجل الذي أراد أن يُدخل الفرحة على قلب أمي المحطم. التفت أنا أيضًا إلى اللوحة لأتأملها، فقد ورثت عن أمي حب الكتابة النثرية وحب الفن، وإن كنت لا أجيد الرسم أبدًا، لكني أحب مشاهدة اللوحات

الفنية، أما كتاباتي فرأيّ أمي وأبي فيها يُعبران عنها بعبارة واحدة "لابأس بها".

اللوحة تُمثل فتاة طويلة الوجه –كما يحب موديلياني أن يرسم وجوه أشخاصه– حاجبيها رفيعين للغاية، أنفها مستقيم، عينيها بيضاوين بلا بؤبؤ، وشفتيها صغيرتين للغاية مزمومتين و.. يا للرب!

من أصف حقًا، اللوحة أم ماجدا؟!

كانت الفتاة ترفع سبابة يدها اليسرى وتسند عليها ذقنها المدببة الصغيرة!

كانت سبابتها طويلة بشكل غير مألوف!

لولا الشعر الطويل المسترسل، والعنق الطويل والقبعة التي تضعها على رأسها، لقلت على الفور إنها ماجدا.

لقد مات موديلياني عام 1920، وولدت ماجدا عام 1916؟ فكيف جاء هذا التشابه؟

هل رسم الدكتور هذه اللوحة بنفسه مقلدًا أسلوب موديلياني حتى لا يجرح شعور أمي باجادته للرسم؟ أم....

أم إن موديلياني نفسه هو واحد من السيالات الستة للدكتور داهش التي رأتها أمي بعينيها ذات يوم؟

أسئلة! أسئلة! أسئلة!

من هو الدكتور داهش حقًا؟

طوال عمري الذي تجاوز الثمانين عامًا لم يكف كل من يقابلني عن إلقاء هذا السؤال في وجهي. آلاف المرات سُئلت هذا السؤال، وفي كل مرة كانت إجابتي لا تتغير.

هو رجل يحيا بروح عجيبة فائقة حد البشر، إنه في حياته المثل الطاهر للمبادئ الإنجيلية. إن الأشخاص الأكثر ثقافة ينحنون أمام مؤلفاته العبقرية التي تتجاوز المائة والخمسين مؤلفًا، التي هي مفخرة اللغة العربية بشهادة من طالعوها.

عاش والده بكل بساطة ووداعة مع عائلته، وتوفي في لبنان، وولده الوحيد الدكتور داهش في الحادية عشرة من عمره، ونشأ مع والدته وشقيقاته في حي المصيطبة، ومنذ ولادته رافقته العجائب.

يذكر الشاعر حليم دموس، مؤرخ الرسالة في كتابه "المعجزات والخوارق الداهشية المذهلة" هذه الواقعة:

ظاهرة 15 آيار/مايو :1943

قدمت سيدة مصرية لزيارة الدكتور داهش، بعدما سمعت عن حديث المعجزات والغرائب،

وقالت له:

- تسلمت اليوم تحريزًا من ابنتي في القاهرة، وفيه تُنبئني بأنه قد سُرقت من منزلي مزهرية ثمينة، ولما كنت قد سمعت كغيري الأنباء العديدة عن أمر الخوارق الروحية، لهذا أتيت لأقول لك إذا كان بالإمكان أن تستحضر المزهرية، فلتبق تذكارًا مني إليك.

فقال لها مبتسمًا:

- شكرًا لكِ على هذه الهدية اللطيفة، فهل لك أن تدعيني أنعم النظر فيما هو مرسوم عليها؟

قال هذا ونظر إلى المكتب بجانبه، وإذا بالسيدة تشاهد فجأة مزهريتها، وقد انتصبت قائمة، في منتصف المكتب. فأسرعت إليها بلهفة وأمسكتها متفحصة إياها بتدقيق، فإذا هي مزهريتها التي تعرفها جيدًا.

وخرجت السيدة المصرية من المنزل كي تذيع نبأ هذه المعجزة الداهشية التي شاهدتها ولمستها لمس اليد، وهذه السيدة شهدت أمامي قبيل خروجها أنها عرفت الدكتور داهش وقوته العجيبة في بيت لحم ثم في مصر، وذلك منذ سنوات بعيدة.

***

في شبابي كنت أحرص أن أرى بنفسي خوارقه المدهشة.

وطلبت منه أكثر من مرة أن أحضر جلسة روحية –كانت تلك الجلسات لا يحضرها الشباب من سني– وقد وعدني بذلك.

وطلب من الدكتور فريد أبو سليمان أن يُعطيني الأوراق الصفراء المخصصة لعمل "الرمز الداهشي" وأن يُعلمني كيف أكتب "الرمز" وأطويه وأحرقه كي أعمله يوميًا خلال شهر كامل من دون أي خطأ. وعلى إثر ذلك يُحدَّد لي موعد لحضور جلسة روحية خاصة بي.

أخبرني الدكتور أبو سليمان أن مواعيد الجلسات الروحية تُحددها الروح العلوية، وليس الدكتور داهش، وتكتبها هي "روحيًا" في مفكرة بحوزة الدكتور جورج خبصا الذي كان مسئولًا عنها. وفي أول كل أسبوع يفتحها للاطلاع على المواعيد المحددة من الروح العلوية، وإبلاغ الأشخاص المعنيين ودعوتهم إلى الحضور.

تعلمت من أمي رسم الرمز الداهشي بإجادة، وشرعت كل يوم أرسمه على حدى الأوراق الثلاثين التي أعطانى إياها ثم أطويها بطريقتنا التعبدية الخاصة ثم أحرقها.

وسأرسم هذا الرمز المقدس الآن في أوراقي حتى يظل بعد موتي:

لكن يبدو أني أخطأت حيث كنت أكتب الورق وأحرقه في أوقات مختلفة من اليوم، لم يتم اختياري لحضور الجلسات الروحية.

انغمست في تلك الفترة في الكتابة، فقد تزوجت أختي أندرة، ومات أبي جورج حداد، بينما ظللت أعيش مع أمي التي سارعت علامات الشيخوخة إليها، وأعتقد أنه لولا الإيمان الداهشي، والصداقة العميقة التي نشأت بينها وبين هادينا الحبيب، لكانت استسلمت للموت منذ سنوات.

كنت أقرأ كل كتب الدكتور داهش التي تصدر. تعلمت منها الكثير.

عندما كنا –أنا وأمي– نزوره في بيته، كان يسمح لي بالدخول إلى مكتبه، حيث هناك مكتبة كبيرة بعرض الحائط تمتلئ بالكتب، أعتقد أنها كانت آلاف الكتب، كنت دائمًا ما أتذكر –وأنا أتصفح الكتب لأختار من بينها– أنه بعد وفاة والده أدخل إلى "ميتم غزير"، حيث أمضي بضعة أشهرٍ في مدرسته، وكانت هذه المدة الوحيدة التي تلقّى فيها التعليم طوال حياته.

ومع ذلك، فقد أربت مؤلفاته على أكثر من مائة وخمسين كتابًا، تناول فيها شتى المواضيع الأدبية والفكرية، واحتوت مكتبته الخاصة -قبل انتقاله إلى الفراديس الإلهية- على ما يزيد على ربع مليون كتاب، لعباقرة الأدب والفكر في العالم.

لمحت على المكتب كتابًا غريب الغلاف، اقتربت منه، وقرأت العنوان:

كتاب "خيال مُجنح أو الحياة في القمر".

كان كتابًا جديدًا للدكتور داهش وكان غلافه مخيفًا:

أشعة شمس ذهبية كثيفة مسلطة على شيطان يطير في السماء، هو الشيطان كما تجسده الرسوم، نصف جسده العلوي أحمر بلون النيران، له أذنان كبيرتان مدببتان، وقرنان صغيران ينبتان من جبهته، أصابع يده تنتهي بمخالب، وهو يطير بجناحين أسودين كبيرين، أما نصفه السفلي، فأسود اللون، نحيف الجسد.

كان الشيطان يطير في السماء يضحك، بينما نرى الأرض تمتد أسفل منه، هناك نهر يشق ضفتين من الأشجار المحاطة ببساط أخضر.

أخذت الكتاب وجلست إلى أقرب مقعد، وشرعت أقرأ فيه دون أن أشعر بما حولي:

"كانت الساعة السادسة والنصف مساء، والتاريخ 1978/1/11، وكنا ثلاثة رجال وامرأة.

وقالت السيدة: ليتنا نصعد على القمر ونقطنه.

فقال أحد الرجال: الحياة في القمر تختلف عن الحياة على الأرض، ولكن ستبنى مركبة قمرية تستوعب ثلاثة ملايين مسافر، والرحلة إلى القمر ذهابا وإيابا كلفتها 1000 دولار، وأحياء القمر يختلفون عن سكان كوكب الأرض، إذ إن طول الرجل القمري 100 متر، وبعضهم 200 متر، والرجل فيه كعصا، وصدره لا يتعدى ثلاثة سنتيمترات، وكذلك النساء، وعيون أحياء القمر مشقوقة طولًا، وكذلك أفواههم، فهي تُفتح بالطول وليس بالعرض كأبناء الكرة الأرضية،

والعصفور القمري حجمه كحجم الحوت الضخم، وهو يُتخذ كمركبة يسافر أبناء القمر بواسطته إلى الكواكب، فسرعته 300 ألف كيلومتر في الساعة، ويسع ظهره 2000 راكب، وفيه نتوءات ليجلس المسافر براحة، وقد خلق الله هذه الطيور على صورة تسمح بأن تحمل على ظهورها الخلائق براحة تامة ودون خوف السقوط اطلاقا.

وسكان القمر توجد لكل منهم عين في جبينه، وهي تُفتح كذلك بالطول.

وتوجد أيضا طوائف عديدة: فالسريان عددهم 12 مليونا، ولغتهم السريانية، والمسلمون عددهم 20 مليونا، كما توجد أديان عديدة أخرى كديانة التولباقيين والبروشانيين والسوساكروسبيين والمؤسابلوقريين وهي ديانات أسسها أنبياء هبطوا من الكواكب الموغلة في الفضاء، فاعتنقها قبائل أهل القمر، وبنو معابدهم يقيمون فيها الصلوات التابعة لتلك الكواكب.

فالتولباقية تحمل ابنتها بين يديها وتضحى بها لإلهها تولباق، والإسلام عُرف في القمر بعدما وصل إليه عدد كبير ممن توفاهم الله على الأرض وكانوا قد أوصوا سيالاتهم إلى القمر، فوجدوا فيه ونشروا الإسلام وكذلك السريان فإنهم نشروا ديانة السيد المسيح في أرجاء القمر.

وطعام أهل القمر من أثمار الأشجار، إذ توجد في القمر منطقة ملتهبة أشجارها نارية، والطعام فيها ساخن للغاية، فكأنه قد أخرج فورا من القدور التي أنضجت طعامها النار المتأججة.

كما أن هناك أشجارًا في منطقة ثلوجها أبدية، وأثمارها باردة تصلح لفصل الصيف الشديد الحرارة.

ونساء القمر يرتدين أوراق شجرة الخنفدريس المخملية، فكل ورقة منها تلبس ست فتيات لعظم كبرها وهي متينة جدا ومن الممكن ثنيها وتفصيلها فورا دون الحاجة إلى خياطتها، إذ انها عندما تُطوى على الصورة التي ترغب فيها الفتاة تلتصق فورًا ولا يمكن بعد ذلك فصلها لشدة تماسكها وهكذا تستطيع الفتاة أو الرجل أن يُفصلا أية بذلة بالمقاس الذي يرغبانه.

وعندما يموت رجل أو امرأة يبتدىء جسده يتقلصّ شيئا فشيئا فيعرف بأنه سيغادر القمر ويستمر التقلص شهرا كاملا يصبح في نهايته بحجم السيجارة ثم يختفي.

فيعرف أهله بأنه قد انتقل إلى كوكب السوفيا وهو كوكب يمكث فيه المنتقل اليه ردحا من الزمن ثم تصعد روحه إلى درجة سامية أو تهبط إلى درك سفلي بنسبة سلوكه وما قام به من خير أو شر في عالم القمر.

والحب في القمر غيره على الأرض فعندما يغرم شاب بفتاة قمرية يصفعها على وجهها بجُمع كفه.

فإذا برزت على رأسها شجرة صغيرة من الورد القمري فهي إذن زوجته، وإذا انتصب عوضا عن الشجرة أفعوان فاحم السواد، مختفيا بين القرن المنتصبة على رأسها ووثب على الشاب، فإن هذه الفتاة لن تكون من نصيبه.

والأنثى تلد طفلها أو طفلتها من فمها، ويكون الطفل سنتيمترا واحدا طولا، لكنه سرعان ما

ينمو ويشتد عوده، ففي خلال شهر يصبح طوله لا يقل عن مئة متر وفي خلال عام يتزوج ويستقل بحياته عن عائلته.

والحديث بين سكان القمر يخرج من الآذان، فإذا كان حديث سلام ووئام فمن الأذن اليمنى، وإذا كان حديث شر وخصام فمن الأذن اليسرى".

* * *

كانت كتابات الدكتور داهش تسحرني وتفاجئني بتلك العوالم الغريبة الساحرة التي يأخذنا إليها، ذات يوم كنت أتناقش معه عن الروح، فقال لي:

- من المسلّم به أن النفس تحتل مكانها في جزء من المخ، وهذا الجزء نفسه يكون مركز الأعصاب الذي تنتشر منه النفس في سائر أجزاء الجسم. ولما كانت هذه الأعصاب مليئة بالأرواح، فإن هذه الأرواح تنتقل بدورها من الأعصاب إلى المخ أو مركز النفس، وتنتج عن طريقة تأثيرها التي تُحدثها في المخ الصور المختلفة التي تختلف الآثار التي تُحدثها في المخ.

كنت أكتب القصص العاطفية الساذجة، وكان الدكتور داهش يشجعني على الاستمرار. أما التغيير الجذري الذي حدث لي، فهو عندما تجمع المؤمنون به حوله، يملؤنا الشعور بأننا الحواريون حول يسوع وحدثنا يومها عن "التقمص" فقال إن للحياة الروحانية أشكال لا تعد ولا تُحصى، أما "التقمص" فهو حقيقة راهنة، وهو يعمل على هذه الأرض كما في غيرها من العوالم، ويسمَّى حسب اصطلاحنا درجات سماوية أو درجات جهنمية.

وقد جاء في الكتاب المقدس حيث يقول: "لأن جميع الأنبياء والناموس إلى يوحنا تنبأوا. وإن أردتم أن تقبلوا، فهذا هو إيليا المزمع أن يأتي" (الفصل الحادي عشر من إنجيل متّى).

وما يُثبت لنا التقمص أيضًا حيث يقول: "وسأله التلاميذ إيليا ينبغي أن يأتي أولًا؟ فأجابهم... إن إيليا قد جاء ولم يعرفوه، بل عملوا به كل ما أرادوا... حينئذ فهم التلاميذ أنه قال لهم عن يوحنا المعمدان" (في الفصل السابع عشر من الإنجيل نفسه).

إن الحياة على هذه الأرض هي دور التجربة، وجميع الأديان متفقة على ذلك، لقد جئنا مرارًا إلى هذه الحياة ونحن موجودون منذ الأزل.

وسأله رجل مهيب ظهر منذ فترة بيننا، وعرفنا اسمه فيما بعد:

- كيف نفسر التقمص بشريًا؟

وأجابه الدكتور داهش:

- إن الروح تشبه مجرى الكهرباء، فالنور هو الروح، والمصباح الذي ينكسر ويُستبدل هو الجسد.

ولو لم يكن هناك تقمص، فكيف نستطيع أن نفسر العدل الإلهي؟

منذ تلك اللحظة بدأت أفكر على نحو مختلف، وبدأت أكتب قصصًا مختلفة ضمنتها فيما بعد كتابي "قصة تقمص" الذي اهتم الدكتور داهش بشخصه بأمر طباعته.

الطباعة فاخرة، على الغلاف الخلفي شيء آثار استغرابي. صورتي القديمة بالأبيض والأسود وأنا ما زلت في المدرسة الثانوية!

من اختار هذه الصورة؟

"زينا حداد، أديبة لبنانية باللغة الفرنسية، وُلدت في بيروت بتاريخ 22 شباط/فبراير 1922 ، اتسمت كتاباتها بنفحة روحية تُرفدها مُخيلة مجنحة وأسلوب شيّق. مطبوع على بساطة التعبير وصدق الكلمات وغرابة الوصف ".

هكذا كُتب بجوار صورتي.

ما زلت أنظر لصورتي باستغراب. مَن هذه الفتاة النحيلة التي ترتدي "شيرز" المدرسة المغلق الأزرار، الشعر القصير، ونظرة العين الخائفة الحزينة والوجه البريء؟ ما أضحكني هو تلك الرسوم الملونة لورود وفراشات وعصفور تحيط بصورتي.

غريب! غريب!

أما تحت صورتي فتقرأ نبذة عن الكتاب جاء فيها:

جوهان، بطل كتابي هذا، يموت جنديًا في حرب، ويروي جزءًا من تقمصاته، وما جاز، ويجوز، من أحوال. كما يتحدث عن مثوله أمام القضاة في العالم الآخر، ثم طوافه في العوالم العلوية أو العوالم السفلية. إنه واحد من مليارات الناس الذين يتجسّدون، في العالم، في شتى الأشكال، كالماء يتخذ شكل وعائه. والتقمص رحمة إلهية تتيح لنا فرصة التكفير عن أخطائنا. النفس الخالدة تسافر إلى كل العوالم. ذلك أن أعمالنا تُعيّن لنا أين نقيم، وهي التي تقرر تحولنا أو انتقالنا من حالة إلى حالة، فنصير إما حيوانات أو نباتات أو جمادات.

تُرى هل يختم جوهان حياته على الأرض بقهر ميوله الشريرة؟ هل يخرج منتصرًا من تجاربه التي لا تُحصى ريثما ينكفئ إلى مصدره؟

هذا ما سترويه لنا قصته..

تسبب لي نشر هذا الكتاب بسيل من الخطابات من قراء افتتنوا به، مع مرور السنوات وانتقالي مع أمي من بيت العائلة لنسكن بيت الدكتور داهش، بعد أن اشترته أمي عقب هجرة هادينا إلى الولايات المتحدة، ثم وهبته كمقر أبدي للداهشيين، ضاعت هذه الخطابات.

أحتفظ في أوراقي بقصاصة مقالة كتبها الدكتور داهش عام 1948، ونُشرت في عدد من الصحف اللبنانية، ومن بينها جريدة "الحياة"، وقد تنبأ فيها بشكل صريح وواضح بأن لبنان

سيشهد حربًا أهلية مدمّرة، جاء فيها:

"عندما تدق ساعة الحساب الرهيبة، سأدق أعناق المجرمين الوصوليين دقًا هائلًا، وسأمزق قلوبهم المفعمة بالجرائم تمزيقًا مروّعًا، وسأمزج الصاب والغسلين المريرين الكريهين مذاقًا، وأسكبهما في أفواههم التي لا تنطق إلا بالكذب الشائن والإفك المبين.

وإنني أقسم، غير حانث، بأنني سأنكل تنكيلًا مخيفًا بكل من تدخل في هذه الجريمة الوحشية المنكرة المستنكرة، جريمة تجريد مؤسس الداهشية من جنسيته اللبنانية بالظلم والعدوان.

وسأهرق الدماء الغزيرة من عيونهم الجاحظة هلعًا ورعبًا من يوم الهول، عوضًا عن الدموع.

وستخيم سحب الهموم، وتتكاثف جيوش الغموم، مُعسكرة فوق ربوعهم الخربة، إذ سيدمرها انتقامي الهائل تدميرًا عاصفًا.

إن ساعة الانتقام لا شك زاحفة، وستنقض كالصاعقة المدمرة، فلا تبقي ولا تذر. نعم، إن ساعة الحساب تدنو، ومن زرع جريمة فسيحصد فناءً تامًا، وهذا عدل وحق.

فيا ساعة الانتقام هيا أسرعي، كي أذيق المجرمين ما يستحقونه من أفدح الآلام الصارخة، مما سيسجله القدر بأحرفه النارية، فيخلد هذا الانتقام المخيف ما خلد الزمان، وتدوّن بطون التواريخ أنباء هذا الانتقام المرعب، كعبرة خالدة على مرّ الدهور وكرّ العصور.

إيه يا يوم الانتقام الحبيب على فؤادي، لأنت البلسم الشافي لأتعاب روحي القلقة من طول الانتظار، لذلك اليوم العصيب على أعدائه الرعاديد. أسرع أسرع زلزلهم، أسرع لأقوضهم، وأجعل عامرهم بلقعًا خرابًا، وقفرًا يبابًا، وأصوّح ديارهم، وأدكها دكًا، واذرها رمادًا"

وستتم هذه النبوءة الرهيبة المخيفة الاحداث المقوّضة في عام 1975، والأعوام التي تلي هذا العام المزلزل، إذ ستندلع الحرب اللبنانية، فلا تُبقي ولا تذر.

لكني -على العكس- لا أرى في هذه المقالة إلا تفريغًا لشحنة عاطفية مزلزلة بسبب السجن والنفي والاضطهاد، الذي تعرض له هادينا الحبيب. إنني أتحدى أي إنسان يكون قد تسبب له الدكتور داهش –طوال حياته– في أي أذى.

إنني أذكر تلك الليلة التي قابلته فيها بعد عودته –خلسة– إلى لبنان، عندما رآني أبكي فقال لي:

- أيا زينا الغالية، لماذا تبكين؟ لقد أخرج الظالمون من قبل النبي محمدًا من مكة؟ فلمَ تستغربين أن يحدث هذا لي؟

هل أقول اعترافًا؟

على الرغم من كل الخوارق التي رأيتها بعيني، ورآها كثيرون ولم أكن حاضرة، فإن ما أعتبره أعظم خوارق الدكتور داهش هو هذه الموهبة الأدبية الفلسفية الدينية التي تفجرت في قلب

شاب لم يتعلم في المدرسة إلا بضعة أشهر.

كيف اكتسب هذه البلاغة في الكتابة والنظم؟ كيف ومتى عرف ودرس كل هذه المعلومات التي كان يُحدثنا عنها عن كل الديانات، ليست فقط المسيحية التي كنا ننتمي إليها، لكن اليهودية، والإسلام، والبوذية، والطاوية، وغيرها.

من علمه –في هذا العمر القصير– منذ طفولته حتى عرفناه في شبابه كل هذه العلوم؟

أسئلة عجزت أنا طوال عمري عن الإجابة عنها.

بُعَيد نشوب الحرب الأهلية اللبنانية عام 1975، غادر الدكتور داهش لبنان متنقلًا بين الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا.

في أواخر 1978، عاد إلى لبنان، فأقام فيه قُرابةَ عامين أشرف فيهما على طبعِ كثير من مؤلفاته. ثم عاود، بعد ذلك، تنقلّه بين دول العالم.

منذ ذلك الوقت لم أره مرة أخرى.

عشت طويلا.. طويلًا...

أنا آخر نبوءات الدكتور داهش "الحية". ففي عيد ميلادى العشرين –أول عيد ميلاد لي بعد أن أصبحت داهشية– كتب الدكتور داهش على ورقة مقدسة صفراء تاريخ ميلادي
هكذا 1922/2/2

ثم طوى الورقة –بطريقة خاصة– كانت عيناي لا تفارقان الورقة وقلبى يدق بترقب. مددت يدي –بطريقة عفوية– لأمسك كف أمي التي كانت تجلس بجواري. فضغطت يدي بين كفيها مطمئنة. بعود ثقاب أحرق الدكتور داهش الورقة وتركها تتآكل في المطفأة حتى انطفأ لهبها وعيناها الثاقبتان لا تفارقانها.

بعد لحظات من الترقب نطق:

- ستعيشين طويلًا يا زينا، لقد أضاف الله ما كان متبقيًا من عمر ماجدا إلى عمرك، ستعيشين حتى ينتهي ذِكري، وستكونين الأخيرة!

أنا آخر داهشية في العالم رأت وتكلمت مع الدكتور داهش وجها لوجه.. عشت في بيته، وسأموت بين جدرانه.

***

تعقيب المؤلف

رفضت فاطمة أن أتحدث مع أي من أصحاب المحال، وقالت إنهم لن يُفيدوني بشيء، نزلت من سيارتها، ووقفنا معًا أمام الباب الحديدي الصدئ الشبيه بأبواب السجون. ضغطت زرًا أعلى الباب، فلم أسمع صوت جرس يتردد في الداخل، هل البيت واسع بالداخل إلى هذا الحد؟ لم أسمع أي صوت لخطوات تقترب. لم يُفتح الباب مع مرور الدقائق. التفتُّ إلى فاطمة:

- ألم أقل لك إن البيت مهجور؟

فوجئت بها تمد كفها المبسوطة في اتجاهي:

- أعطني هاتفك المحمول.

استغربت للطلب، هل تريد أن تُجري مكالمة من هاتفي؟ كنت أظن أن هذه "الحركة" خاصة بنا فقط كمصريين.

أخرجت الجهاز من جيبي ووضعته في كفها، قالت وهي تضعه في حقيبتها:

- تذكر أنه غير مسموح بالتصوير. سأعيده لك بعد خروجك من البيت.

- خروجي؟! ألن تدخلي معي يا فاطمة؟

- منذ هذه اللحظة ستقوم بكل شيء وحدك، ولا تسألني أي سؤال عن أي من شخصيات الرواية لأني لن أجيب.

فجأة فُتح الباب وظهر رجل أشيب الشعر، يرتدي نظارة طبية سميكة، طويل القامة، تطلّع إلى فاطمة أولًا ثم هز رأسه يحييها، بدا أنه لم يُفاجأ بها، أكيد أنه يعرفها من قبل، بعد لحظات تفرس في وجهي باهتمام، ثم تحرك خلف الباب مفسحًا لي الطريق.

أشارت فاطمة لي بيدها أن أدخل وهي تقول:

- لا تتعجَّل الرجوع، سأذهب وأعود لك بعد خمس ساعات.

كنت حائرًا في سبب عدم دخولها معي. هل أتراجع الآن؟ هل أخاف من دخول بيت الدكتور داهش؟

* * *

دلفت من الباب، وأغلق الرجل خلفي الأبواب الحديدية، كان المدخل مظلمًا تمامًا –على الرغم من أننا في الظهيرة– هناك مصباح واحد يضيء المكان بلون أصفر باهت. كان هناك سلم يصعد

إلى أعلى، كنت أصعد خلف الرجل مارًا بأشياء لا أعرفها مغطاة بستائر قديمة وملقاة على درجات السلم، لاحظت وجود باب له كوة زجاجية في مواجهة صاعد السلم، لكنه مغلق. باب مسدود!

لماذا سُد هذا الباب؟ وما الموجود خلفه؟

ومتى تتوقف الأسئلة التي تلد ألغازًا بدلًا من أجوبة؟

عندما استدار بنا السلم يمينًا، كان هناك الكثير من الكراتين المغلقة تجعل السلم أضيق؟ ما هذا المكان؟ هل هو مخزن؟

اكتسب درابزين السلم الحديد لونًا بنيًا من فرط الصدأ. صعدنا سلالم كثيرًا واستدار بنا يمينًا مرة أخرى، الحوائط متآكلة والطلاء متساقط من أكثر من مكان.

لماذا لا يقومون بتجديد وتنظيف البيت إذا كانت له هذه الأهمية؟ استدار بنا السلم مرة ثالثة، إلى أين نصعد كل هذه الدرجات؟ إن البيت من الخارج لا يبدو بهذا الارتفاع؟ أشعر أني أصعد أحد أبراج قلعة أثرية وليس مجرد سلالم داخل بيت عادي.

مررنا –مع كل انحناءة– بشباك صغير مفتوح يتسلل منه ضوء الشمس واهنًا، كانت الحوائط تزداد تهالكًا؟ كيف لم ينهر هذا البيت حتى الآن؟

أخيرًا وصلنا إلى بسطة "طولية"، الأبواب الخشبية قديمة ومتآكلة، الأبواب أطول من المعتاد، والسقف عالٍ، ذكرني ذلك بالبيوت التي بناها الأجانب في القاهرة.

دلفنا إلى "ممر طولي" ضيق، إلى اليمين شبابيك كثيرة يتسلل ضوء الشمس من بين ستائرها الخفيفة -هناك شيء لا أفهمه- تحت الشبابيك هناك أكثر من منضدة صغيرة، على كل منها مزهرية مليئة بالورود الطبيعية. الجدار الأيسر مليء تمامًا بلوحات كثيرة داخل براويز، توقفت للحظة محاولًا تفحصها لكن الرجل جذبني من ذراعي قائلًا:

- ليس الآن.

مضطرًا تحركت معه، وإن كنت لمحت سريعًا أن هناك شهادات، وصورًا شخصية، وصفحات من جرائد قديمة وأشياء أخرى لم أستطع تحديدها في مروري السريع.

مشيت خلف الرجل وأنا أكتم غيظي.

ينتهي هذا الممر الطولي بحائط عليه ستارة سميكة من لون أحمر قانٍ. كان هناك باب خشبي إلى اليسار، وقف الرجل أمام الباب ثم أشار لي بيده أن أدخل.

وجدت نفسي في حجرة صغيرة "طولية"، الحجرة ضيقة بطريقة غريبة، هناك أريكة طويلة تمتد بطول كل من الحائط الأيمن والأيسر، تتوسطهما منضدة صغيرة عليها مزهرية مليئة بالورد!

هناك نوافذ مغلقة على الجانب الأيمن عليها ستائر شفافة تضيء الحجرة. بينما الحائط الأيسر مغطى بستارة لونها بيج تمتلئ برسومات الورود.

الغريب أن نفس هذا القماش يغطي الأريكتين والمنضدة الصغيرة. كانت لوحة العشاء الأخير الشهيرة معلقة في برواز ذهبي على الحائط الأيسر.

المسيح يتوسط حواريه في لوحة العشاء الأخير الشهيرة لدافنشي.

على الحائط المواجه لمدخل الحجرة هناك ستارة سميكة لونها أحمر قانٍ -لقد رأيتها من قبل، أليس كذلك؟- تغطي الجدران كاملًا. تتوسط الستارة صورة للدكتور داهش في برواز خشبي مربع بلون الذهب.

لأول مرة أواجه صورة حقيقية للدكتور داهش. لم أنتبه إلى انصراف الرجل الغامض، لأني انشغلت بالاقتراب من صورة الرجل الذي جئت من مصر إلى لبنان لأكتب عنه رواية. تحت الصورة مباشرة كانت هناك نجمة خماسية منحوتة من الخشب، وأيضًا موضوعة في برواز، لكن بلا زجاج. انقبض قلبي لرؤية النجمة الخماسية. لا أعرف لمَ لا أحبها. على يمين النجمة الخماسية هناك برواز آخر لصورة يظهر فيها الدكتور داهش يجلس فيها مع رجل مهيب لا أعرفه، والصورة بالأبيض والأسود. أما على يسار النجمة الخماسية، فهناك ساعة حائط على هيئة شمس تخرج منها شعاعات من الضوء.

ذكرتني بنقوش الشمس "آتون" التي كانت رمز التعبد عند إخناتون.

عدت لأتأمل وجه الدكتور داهش. الصورة ملونة، يظهر فيها وهو يواجه الكاميرا. كان كبير السن. قبل أن أتأمل ملامحه لفتت انتباهي بذلته البيج والمنديل البني الذي يُطل من جيبها، القميص الأبيض، وربطة العنق تتوازي فيها الخطوط البنية على الخلفية البيج (أين رأيت هذه البذلة من قبل؟).

الوجه لرجل ممتلئ يبدو لي مصري الملامح، هادئ الوجه، انسحب شعره الأشيب من مقدمة رأسه إلى منتصفها، جاعلًا الجبهة عريضة في صلع واضح، الوجنتان ممتلئتان، الذقن الصغيرة المدببة، والشارب الرفيع. الحاجبان الثقيلان. العينان!

هذه هي المرة الأولى التي سأتفحص فيها عينيه اللتين لم تظهرا بوضوح في صور الإعلان. يجب أن أعترف أن هناك شيئًا ما فيهما. بؤبؤ العين الأسود يحتل معظم العين تاركًا لبياض العين أطرافًا صغيرة.

عينان تتكلمان!

هل هي نفس فكرة عيني لوحة الموناليزا الشهيرة؟

لماذا تجذبني هاتان العينان إلى التحديق فيهما؟

تتكلمان؟

أريد أن أرى صورة واضحة للدكتور داهش، وهو شاب قبل أن أحكم على هذه الصورة، هل هذا الرجل العجوز الهادئ الوجه الطيب الملامح الذي يبدو كحاج متقاعد يستقبل الموت هادئًا بعد أن حقق أمله بالطواف حول الكعبة، هو نفسه الرجل الذي آثار فضول الناس من لبنان إلى أمريكا؟

سمعت خطوات الرجل الغامض وهي تتوقف أمام باب الحجرة، التفتُّ له فوجدته يحمل صينية عليها كوب من الشاي قال:

- نحن نشرب القهوة، لكنكم في مصر تفضلون الشاي، أليس كذلك؟

قلت وأنا ألتفت له:

- إذا كنت تعرف عني كل شيء، فهل يمكن أن تعرفني باسمك؟

وضع صينية الشاي على المنضدة ثم جلس، فجلست على الأريكة المقابلة. قال بعد لحظات:

- أنا هنا لأرشدك، يمكنك أن تناديني بالدكتور.

- أحتاج إلى من أتكلم معه. من يحكي لي.

- سنتكلم.. في الوقت المناسب.

- وأحتاج إلى أن أرى كل ركن في البيت.

اتسعت ابتسامته وهو يقول:

- هل تعتقد أنك سترى كل شيء في يوم واحد؟

- هل قابلت الدكتور داهش شخصيا؟

نهض الدكتور الغامض واقفًا وهو يقول:

- هل جربت يومًا أن تقرأ رواية من صفحتها الأخيرة؟

* * *

لم أشرب الشاي (الحذر مطلوب) هز الدكتور رأسه بتفهم. قلت له بحماس:

- أريد أولًا أن أرى صورة للدكتور داهش في شبابه.

أشار لي بيده لأتبعه، خرجنا من الحجرة إلى "ممر طولي" قصير لنجد أنفسنا بعد خطوات ندخل عبر باب خشبي من ضلفتين مفتوحتين، لاحظت وجود نقوش النجمة الخماسية كأن

أحدهم حفرها بمطواة أو سكين أو بأظافره الطويلة على ضلفتي الباب من الداخل، كانت النجمتان المحفورتان غير منتظمتين ويبدو أن من حفرهما كانت يده ترتجف رعبًا أو بكاء.

أعترف أن منظرهما مخيف. وجدت نفسي أمام بوفيه (من نفس نوع خشب الباب!) لا يتعدى مترًا ونصف المتر عرضًا عليه قطعة من رخام لونها بيج وتتوسطها مزهرية عليها ورود!

ما كل هذه الورود الطبيعية؟ من يعتني بها، إن الصمت التام الذي يسيطر على هذا البيت يدل على أنه لا يسكنه إلا هذا الدكتور الغامض.

فعلًا، ما هذا الصمت؟ أنا أعرف كيف يكون الصمت؟ لكن هذا ليس صمتًا. هذا يبدو كفراغ. لا همسة حتى تصدر من الشارع الذي يُطل عليه البيت.

أسئلة! فلتكف عن الأسئلة!

قلت للدكتور باعتراض:

- لكن، كيف؟ ليس هذا هو الممر الذي جئنا منه.

أشار بيده إلى الحائط خلف البوفيه. حيث هناك ستارة سميكة زرقاء اللون، معلق عليها مجموعة من البراويز، لوحة كبيرة للدكتور داهش رسمتها ماري حداد

البذلة!

بجوارها صورة غلاف لأحد كتب الدكتور داهش في الرحلات، وتحتهما صورة لعدد من مجلة (صوت داهش) تُمثل معبد الكرنك على الغلاف، ثم بجوارها صورة كبيرة يقف فيها الدكتور داهش –يبدو في الصورة أصغر سنًا من الصورة السابقة– حيث يقف أمام مكتب فخم، وعلى يمينه مكتبة ضخمة تمتلئ أرففها بالكتب. أما الحائط خلفه فيمتلئ باللوحات والحيوانات المحنطة.

أشار الدكتور الغامض إلى هذه الصورة وقال:

- هذه الصورة كانت في بيته في نيويورك.

أشار لي أن أتبعه، فعدنا لنخرج من نفس الباب ثم ندلف عبر باب خشبي آخر لأجد نفسي في الممر الطولي الأول. هذه المرة انتبهت إلى الكتب المصفوفة في ستاند متدرج، اقتربت منها، وجدتها كتبًا ألفها الدكتور داهش وعليها صورته، سألت الغامض باهتمام:

- هل يمكن أن أتصفحها؟

هز الغامض رأسه بالإيجاب، ثم تحرك ليجلس على كرسي طولي في نهاية الممر، بالطبع سيراقبني حتى لا أسرق أحد الكتب.

ضايقني هذا الخاطر الخبيث، لكن فضولي وحماسي لأن أمسك بيدي الكتب التي ألفها داهش

تغلبا عليّ.

كانت الكتب أكثر مما أتصور، وأهم مما كنت أتخيل، طلبت من الرجل –الذي رفض ذكر اسمه– أن أستعير كل يوم كتابًا منها لأقرأه وأدرسه على مهل، لكنه رفض بحسم وقال إنه من المستحيل أن يخرج كتاب واحد من بيت الدكتور داهش، وأخبرني أني لو قضيت ما بقي من عمري في هذا البيت ما منعني أحد.

شعرت بالضيق من هذه التضييقات عليّ، وقررت أن أتصفح الكتب لو جئت كل يوم فعلًا، فتأشيرتي للبنان مدتها سنة كاملة، وإقامتي مدفوعة، لا بأس إذن.

كتاب "بروق ورعود" الغلاف رسمه أحدهم لوجه الدكتور داهش وهو شاب، تبدو هذه الرسمة أقرب إلى لوحة ماري حداد، لكن الرسام هنا أقل موهبة منها.

كتاب "عواطف وعواصف" الغلاف صورة فوتوغرافية باللون الأحمر لوجه الشاب داهش وهو ينظر جهة اليسار، الشعر الكثيف الذي تغيَّر مع الزمن، الحاجبان الثقيلان، والشارب الرفيع -كيف لم يتغير مع الزمن؟- أما عيناه فقد كان ينظر إلى أعلى! إلى فوق!

ماهذه النظرة؟ ولمَ يأخذ شاب صغير –يبدو في الصورة في العشرين من عمره– صورة له وهو ينظر إلى فوق باهتمام؟ إلامَ ينظر؟

كتاب "نبال ونصل" وصورة أخرى بالأبيض والأسود يبدو فيها لا يتجاوز الثلاثين من عمره، نفس الملامح، ينظر أيضًا جهة اليسار (لماذا؟ ما سر الجهة اليسرى؟) لكن هذه المرة ينظر باهتمام إلى شيء ما بالأسفل!

لماذا لا توجد له صورة -في شبابه- وهو يواجه الكاميرا؟!

كانت هناك أيضًا الكثير من كتبه الأخرى، لكن أغلفتها لا تحمل صورته، بل تحمل اسمه مع لوحات ملونة عارية لرجل وحوله فتيات جميلات، تبدو هذه اللوحات تعبر عن الرجل والمرأة في الثقافة الغربية، وتبدو أنها من لوحات فنانين عالميين لا أعرفهم.

لم أتوقف كثيرًا أمامهم حتى لا يظن الغامض أني أتأمل اللوحات العارية.

أمسكت بكتاب زينا حداد وعنوانه "قصة تقمص"، وبدأت أقرأ قصة تحت عنوان "حظية المهراجا":

عايشت جميع الأعراق، في خلال تقمصاتي المتعددة، واكتسبت الجنسيات والأديان كافة، كلنا خبر مختلف العبادات المنتشرة في العالم: الوثنية، اليهودية، المجوسية، الإسلام، المسيحية، وما إليها، وكلما اعتنقنا -بالتقليد- دينًا أنكرنا وناهضنا ما نشأنا عليه من أديان أخرى في أدوارنا السابقة، مع أنها كلها من مصدر واحد.

كدت أجوب آسيا كلها داعية بوذيًا، كان عملي شاقًا. المصاعب التي اعترضتني، كانت تفوق التصور، كنت أجرّ خطاي ممزق الثياب، ترب القدمين وكان عابرو السبيل يهزأون بي، كنت

أتسلل إلى الأزقة الحقيرة لأبشّر، علّ كلمتي تستقر في قلب أحد الذين يصغون إليّ. كانت سعادتي أن أراه يصحو فجأة من غفلته، وأن يستزيدني الاطلاع على الرسالة، التي كنت أنا في سبيل نشرها.

وكان بلسمًا لجراحي أن أراه يتبعني، ويتأثر بخطاي. وبعد أن طوّفت البلاد كافة، رجعت إلى الهند مرهقًا، يضويني الصوم والعوز، فآلفيت أمي قد شاخت، فأسلمت الروح قربها، وأحرقت جثتي واختلط رفاتي بمياه نهر الجانج.

أرسلني قضاتي إلى الأرض مرة أخرى، وكانت الهند مجال الاختبار أيضًا. كنت آنذاك امرأة جميلة فانتخبني أحد المهارجة راقصة عنده.

* * *

أخبرت فاطمة أننا لن نذهب إلى بيت داهش كل يوم، فسأحتاج إلى يوم بعد كل زيارة أخلو فيه إلى نفسي لقراءة ما جمعته من معلومات، ولمعايشة الشخصيات والأحداث، وربما أحتاج إلى أن أخرج لأتمشّى وحدي في شوارع بيروت، فالمشي فرصة جيدة للتأمل، ومعايشة جو الشوارع والناس لأدخل في "مود" الكتابة.

قالت فاطمة:

- كما تحب، ولكن إذا خرجت ليلًا....

صمتت فاطمة، احمرّ خداها قليلًا وهي تردف:

- يجب أن تنتبه أن بعض الفتيات يستغللن فتنتهن في سرقة السائحين أحيانًا، خصوصًا في الملاهي الليلية.

قلت بصدق:

- اهتماماتي أكبر من الملاهي الليلية.

- أعرف أنك لن تذهب.

نظرت لها باهتمام وأنا أفكر في كلماتها، وفيم وراء كلماتها. لكني لم أمنع نفسي من أن أخبرها أني حانق عليها، لأنها منعتني من حمل الهاتف المحمول وقلت:

- كان هناك الكثير من الصور التي أحتاج أن أحتفظ بصورة عنها لكتابة الرواية.

- أنت تعرف أنه ممنوع تمامًا.

- والكتب؟ إذا كان من غير المسموح اصطحابها خارج البيت، فما المانع إذا قمت بتصوير بعض صفحاتها بكاميرا الموبايل لحين الحاجة لها أثناء الكتابة.

- اقرأ ما شئت من كتب هناك، وانقل ما تريد من مقتطفات.

- "أنقل"، هل رجعنا إلى القرن العشرين؟

ضحكت فاطمة ضحكتها الجميلة، فقلت في نفسي إذا خرجت من هذه المغامرة بمعرفة فاطمة، فأنا الرابح.

مكتبة
بيت الحصريات
maktabbah.blogspot.com

***

كان هناك شيء ما يشغل بالي، شيء قرأته أو رأيته أثار في ذهني أفكارًا غريبة، يجب أن أتأكد منها أولًا.

في حجرتي دخلت على الإنترنت وبحثت عن الشيء الذي أثار انتباهي حتى وجدته، كان الأمر غريبًا ومثيرًا حتى إني احترت كيف سأكتب عنه، هل هذا ممكن؟

في عام 1979 نشر نجيب محفوظ مجموعته القصصية "الحب فوق هضبة الهرم" وبها قصة من أغرب قصصه، قصة لم تتكرر مرة أخرى في أدب روائي نوبل، موضوع غريب على المجتمع والفكر المصري في ذلك الوقت وهي قصة "السماء السابعة" جاء فيها:

يموت رؤوف عبد ربه، وتصعد روحه إلى السماء الأولى، حيث يقابل رجلًا يتدثر في سحابة ويدور بينهما حوار غريب حيث يقول له الرجل:

هذا نصه كما كتبه نجيب محفوظ:

صبرًا! دعني أحدثك عن موطنك الجديد، هذه السماء تستقبل الوافدين الجدد، فيها يُحاكمون وأتولى أنا الدفاع عنهم، الأحكام تتراوح بين البراءة والإعدام. في حال البراءة يقضي البريء عامًا واحدًا هنا، يتأهل فيه روحيًا للصعود إلى السماء الثانية...

فقاطعه رؤوف متسائلًا:

- لكن ما معنى الإعدام؟

- معناه أن يُقضى عليه، بأن يولد من جديد في الأرض ليمارس الحياة مرة أخرى لعلّه يلقى قدرًا أكثر من النجاح. أما ما بين البراءة والإعدام، فيلزم على المتهم عادة بأن يعمل مرشدًا روحيًا لشخص أو أكثر في الأرض، ويكون صعوده إلى السماء الثانية رهنًا بتوفيقه أو تمتد مدة تجربته وهكذا.

... ثم يمضي الحديث بينهما حتى...

وقال له رؤوف:

- أود أن أرى أدولف هتلر، هل يجيء الآن؟

- لقد قُضي عليه بالإعدام فولد في حارتكم من جديد وطالما رأيته.

- هتلر؟

- هو المعلم قدري الجزار.

فصمت رؤوف مليًا من الدهشة، ثم تساءل:

- إذن فمن يكون شيخ الحارة شاكر الدرزي؟

- لورد بلفور.

- والشيخ عاشور الولي الكاذب؟

- إنه خنفس، خائن الثورة العرابية.

...

... وجاء الوافد الثاني، قدَم تقريرًا، تلقَّى كلمات مشجعة ثم اختفى عند ذاك قال رؤوف:

- إنه الرئيس ويلسون!

- أجل.

- حسبته من القلة السعيدة التي صعدت للسماء الثانية.

- أنت تشير بلا شك إلى مبادئه السامية، لكنك نسيت أنه لم يستغل قوة أمريكا في تنفيذها، بل إنه اعترف بالحماية على مصر.

- ومن رجله؟

- الأستاذ توفيق الحكيم!

...

وتفكرَ رؤوف طويلًا حتى أرهقه التفكير، فعاد إلى تشوُّقه السابق لمعرفة مصائر الشخوص الذين يهتم بهم، فسأل آبو:

- أود أن أعرف مصائر زعماء وطني.

- انتظر حتى تراهم، أو سل ما بدا لك.

- ماذا عن السيد عمر مكرم؟

- إنه مرشد أنيس منصور.

- وأحمد عرابي؟

- إنه مرشد لويس عوض.

- ومصطفى كامل؟

- مرشد فتحي رضوان.

- ومحمد فريد؟

- مرشد عثمان أحمد عثمان.

...

يعلق الدكتور عبدالمعطي بيومي على هذه القصة وما جاء فيها عن مصير الروح، بأنه يشبه ما كتبه أبو العلاء المعري في رسالة الغفران: "وهي تخيلات رمزية تكشف عن رؤية صاحبها ولا تمس العقيدة".

ويضيف: كمسلمين، نؤمن بأن الأرواح مصيرها عالم البرزخ.. وهي لا تُفني أو تموت، هي باقية، ومن الممكن أن يكون ما تخيله محفوظ صحيحًا، أما ما كتبه عن أن روحًا تعمل كمرشد لشخص ما، فهو الأقرب لتحليل سياسي يسقِط من خلاله مواقفه على الأشخاص، ويشير إلى أننا -كمسلمين- لسنا مأمورين بالحديث أو البحث عن مصير الروح، لكننا في نفس الوقت غير منهيين عن أن نبحث.

***

كتب الدكتور داهش في مقدمة كتابه "قصص غريبة وأساطير عجيبة":

فالقصص التي ذُكرت فيها حوادث التقمص ليست خيالية، فأنا أؤمن بالتقمص إيماني بوجودي، أي إن الإنسان يتكرر مجيئه إلى الأرض ليتطهّر من أوشابه، ويتخلص من أوزاره، والتوراة تذكر في سِفر الخروج أن القضاة كانوا يُحاكمون الحجر إذا سقط على رجل فأماته، ويحكمون عليه بالتحطيم حتى يصبح كالدقيق ثم يذرون رماده في الفضاء، كما كانوا أيضًا يحكمون على البهيمة إذا ضاجعها رجل بعقوبات مختلفة، كما يحكمون على الفاعل. فكيف يمكن أن تُحاكم بهيمة غير عاقلة. وكيف يُحاكم جماد، ويُحكم عليهما لو لم يؤمن القضاة بأنهما مسئولان عن

عملهما مثلما يُحاكم أي ابن حواء، لأنه يفهم مسئوليته عندما يُقدم على عمل غير شرعي، فيُحاكم ويُحكم عليه بعقوبة شديدة أو مخففة بالنسبة لعمله الإجرامي.

والسيد المسيح، مؤسس الديانة المسيحية، سأله تلاميذه عن إيليا النبي قائلين له: إن النبوءات تؤكد أن إيليا النبي سيعود إلى الأرض ثانية، فمتى تكون عودته؟

فأجابهم: إن إيليا النبي قد عاد إلى الأرض وهو يُعرف الآن باسم يوحنا المعمدان.

والدين الإسلامي يذكر بآيات القرآن الكريم عن التقمص فيقول: "كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتًا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون" (سورة البقرة، الآية .(28

وفي سورة الانفطار: "يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم (6) الذي خلقك فسواك فعدلك (7 (في أي صورة ما شاء ركبك (8)" (سورة الانفطار، الآيات (6:8

وفي سورة غافر: "قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل" (سورة غافر، الآية (11

وفي سورة الواقعة: "نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين (60) على أن نبدل أمثالكم وننشئكم في ما لا تعلمون (61)" (سورة الواقعة، الآيتان (60،61

ونظريتنا في التقمص هي الآتية: إن الأديان قاطبة تقول، بل تؤكد، أن الإنسان يولد على هذه الأرض، وفي أثناء حياته الأرضية يقوم بأعمال صالحة وأخرى طالحة، وعندما يتوفاه الله يذهب إلى النعيم إذا كانت أعماله صالحة، أو إلى الجحيم إذا كانت أعماله شريرة.....

بالنسبة لما أكده مؤسسو الأديان، سيذهب البشر جميعهم إلى جهنم النار المتقدة، ويمكثون مخلدين فيها من دهر إلى دهر ومن أزل إلى أبد، وهذا أمر غير جائز إطلاقا وظلم رهيب، فرحمة الله عظيمة وعميقة، لهذا أعطانا فرصة إصلاح أنفسنا والارتقاء بأرواحنا، فمنحنا نعمة التقمص، وربما أعطانا إياها ستة آلاف مرة، نعود فيها إلى عالم الأرض لنتغلب في خلال هذه التقمصات على ضعفنا البشري، ارتقاء بأرواحنا لنبلغ جنة النعيم، ففي خلال هذه التقمصات ممكن لأي بشري أن يُحسّن سلوكه في خلال دوراته الحياتية وتكرار ذهابه وإيابه...

* * *

حاولت النوم هذه الليلة، لكن كان هناك خاطر يُلح على ذهني. هل أخطأت في الحكم على نجيب محفوظ؟ هل كانت قصته "السماء السابعة" هي القصة الأولى التي يمكن أن تكون قد تأثرت بأفكار الدكتور داهش؟

نهضت من فراشي وفتحت الإنترنت وشرعت في البحث عن قصة ما قرأتها منذ سنوات، لكني

لا أذكر تفاصيلها الآن.

مرت الساعات دون أن أنتبه، وعندما أشرقت الشمس كانت في انتظاري مفاجأة.

قصة لتوفيق الحكيم بعنوان: "الدنيا رواية" التي صدرت في كتاب للمرة الأولى عام 1966 جاء في هذه القصة:

الدنيا رواية حقًا في نظر أولئك الذين يؤمنون بنظرية حلول الروح، تلك النظرية التي تزعم أن عدد الأرواح في الكون محدود، كما أن عدد الممثلين في المسرح محدود. وأن الذي يتغير هو الأدوار التي يتقمصها أولئك الممثلون. وهي أدوار لا حد لها ولا نهاية. في تلك الرواية الاستعراضية العظمى.

إذا سايرنا أصحاب هذا الزعم في زعمهم، فإن الصورة التي يمكن رسمها للدنيا تبدو جديرة بالتأمل. ومن السهل تخيل الأرواح في ظهورها واختفائها فوق مسرح الدنيا، على الوجه الذي يحدث بالضبط في المسارح التمثيلية.

فهناك، مثلا، بعيدًا عن هذه الأرض وشمسها وقمرها، مكان خفي، يمكن أن نتصور فيه ملاكًا يقوم بوظيفة "الريجيسير"، أي مدير المسرح.

ولا بأس من أن نتخيل ذلك "الملاك " في مكانه هذا يباشر أعماله اليومية، وينظر في "اللوح " الذي أمامه، المسطورة فيه الأدوار والأقدار، ويستعرض ألوف الأرواح المهيأة للظهور على مسرح الدنيا، ويستقبل الألوف من الأرواح الخارجة منه، ولا ضير أيضًا في أن نطلق الخيال أبعد من ذلك، لينسج لنا قصة روح من بين تلك الأرواح العائدة.

ولنقرأ هذه الفقرة:

فلم يتمالك الملاك وقال نافد الصبر:

- ليس عندي وقت للمزاح يا سيدي.. آه لو درى عزرائيل! ذلك الذي لا تبطل له شكوى من كثرة أعماله، لمجرد قبضه عدة أرواح كل يوم، ينفض بعدها يديه ويستريح. أما أنا، فيجب عليّ أن أقاسي من أرواحه وأتحمّل حماقاتها، وأصغي إلى ثرثرتها، يا حضرة الفاضل. ألم يقبضك عزرائيل؟ كيف تريد إذن مني أن أعيدك إلى زوجتك؟ وإذا كان كل روح يقبضها زميلي أعيدها أنا، فما الفائدة إذن من قبض الأرواح؟

- أنا شخصيًا لا أرى فائدة. لقد كنت مع زوجتي في أتم هناء. فلماذا تتدخلون أنتم لتفرقوا بين المحبين؟

- لا نستطيع يا سيدي الفاضل أن نتركك في هذا الدور، أعني في هذا الجسد كما تحب أنت وتشاء، لأن روحك تلزمنا في عمل آخر.

- عمل آخر؟

- طبعًا. لا بد لك من جسد آخر تحل فيه، ودور آخر تقوم به. وهل تظن أن هذا كان أول أدوارك

أو آخرها؟ لقد سبق لك أن حللت في مئات الأجساد، وقمت بمئات الأدوار.

- أنا؟ أنا سبق لي أن كنت شيئًا اخر غير زوج يحب زوجته، وطبيب جراح في....

فابتسم الملاك ابتسامة الساخر المتبرم، الراثي لجهل محدثه، وأخذ يقلب في صمت صفحات سجله الضخم، إلى أن وقف على صفحة، نظر فيها لحظة ثم قال:

- اسمع يا سيدي، قبل أن تكون زوجًا وطبيبًا، كنت لصًا سكيرًا، فتك براقصة في ملهى ليسرق حليها، ومات على المشنقة.

- أنا؟

- انتظر، ثم كنت قبل ذلك جنديًا بسيطًا قُتل في معركة، ثم كنت طفلًا مات بالدفتيريا، ثم كنت امرأة ماتت في الوضع، ثم كنت رجل دين مات بالشيخوخة، ثم أميرًا مات مسمومًا، ثم كنت ساحرًا هنديًا لدغته أفعى، ثم كنت فتاة انتحرت في حادثة غرامية.

- كفى، كفى.

***

إذن، فقد سبق توفيق الحكيم، نجيب محفوظ بالكتابة عن فكرة التقمص.

لكن الموضوع لم ينته عند هذا الحد.

في عام 1974، يُعيد الحكيم كتابة "فكرة" هذه القصة على شكل مسرحية، بعد أن يُضيف إلى العنوان كلمة واحدة، فيصبح العنوان الجديد هو "الدنيا رواية هزلية".

ويبدو أن توفيق الحكيم أراد بإضافة كلمة "هزلية" أن يتجنب غضب رجال الدين على فكرة المسرحية عندما نُشرت في طبعة مكتبة مصر بالفجالة.

والفارق بين "القصة" و"المسرحية" واضح للغاية:

ففي القصة "الأصلية" تدور الأحداث في السماء بين الملاك ورجل وزوجته ماتا، ويريد الملاك أن يرسلهما في "تقمص" جديد إلى الأرض.

أما في "المسرحية":

فهناك موظف اسمه "خالد" –لاحظ دلالة الاسم– هو موظف بأرشيف إحدى المصالح الحكومية، يشعر بالملل فيعطيه أحد زملائه كتابًا، يعود خالد إلى بيته ويبدأ في قراءة الكتاب بصوت عالٍ:

خالد: حلول الروح أو تناسخ الأرواح، كما جاء في بعض عقائد الهنود وعند قدماء المصريين. تزعم هذه المعتقدات القديمة أن روح الشخص تحل في أجساد مختلفة، وأن للشخص الواحد أكثر من حياة. فهو قد يكون في حياة من هذه الحيوات مغمورًا، وفي حياة أخرى مشهورًا، في حياة فقيرًا معدمًا، وفي حياة ثريًا مترفًا".

وينام خالد ويسقط الكتاب من يده، ويغط ويحلم، ويتجسد الحلم.

في الفصول التالية، يقابل خالد أحد "الأشخاص" -هو الملاك في القصة القصيرة- ليشرح لخالد أنه مات، وأنه الآن روح، وأنه سيتجسد في أجسام أخرى ليعيش حياتهم.

من الملاحظ أن الحوار بين خالد وبين هذا "الشخص" هو بنصه الحوار الذي دار في القصة بين الرجل الميت وبين الملاك، الفارق الوحيد أن الحوار يدور في المسرحية باللهجة العامية المصرية.

ثم ينتقل خالد بعدها ليتجسد في أكثر من حياة، مرة كتاجر، ومرة كأنطونيو، ومرة كروميو...و...

المهم، أنه يستيقظ في نهاية المسرحية الطويلة.

لماذا "كرر" توفيق الحكيم فكرة "التقمص" مرة أخرى بهذا التفصيل بعد مرور 8 سنوات على كتابته للقصة "الأصلية"؟

ولماذا في هذا العام بالتحديد 1974؟

* * *

اتصلت بفاطمة وطلبت منها أن أذهب في اليوم التالي –على عكس ما اتفقت عليه معها– إلى منزل الدكتور داهش.

كان همّي أن أقرأ في كتاب لمحته أثناء وجودي هناك اليوم.

وتَّرتني الفكرة التي تنمو وتتفرع في رأسي، وقضيت الليلة ساهزا أقلب في روايات نجيب محفوظ –التي أكاد أحفظها– على الإنترنت.

مرهقًا، محمرّ العينين، كنت أقف أمام الرجل الغامض وأقول له:

- لمحت بالأمس غلاف كتاب -في البرواز الموجود في الممر الآخر- رحلات للدكتور داهش زار فيها مصر. أريد أن أقرأه.

فاجأني الرجل الغامض بأن حرّك رأسه بالنفي، وهو يقول بأسف:

- ألم تخبرك فاطمة أن هناك كتبًا للدكتور داهش لا يمكنك الاطلاع عليها؟

- بل قالت إن لي الحرية أن أطلع على ما أشاء.

رفع الرجل سبابته وقال بحسم:

- في هذا المكان. أنا الذي أقرر.

تمالكت أعصابي ثم أخبرته عن أهمية هذا الكتاب لموضوع الرواية، لكنه أصر على رفضه، أشار أن أتبعه، فاستغربت، لكني تبعته، خرجنا من الممر إلى ممر آخر طولي.

هناك فكرة ما تدور برأسي حول هذا البيت، لكني لا أستطيع تحديدها!

انتهى بنا هذا الممر إلى حجرة أخرى (كم حجرة في هذا البيت!) لها باب خشبي مفتوح (لماذا كل الأبواب مفتوحة؟) تبعته إلى الحجرة فإذا هي في نفس حجم الحجرة الأولى، رأيت مكتبًا وكرسيين في ركن، بينما الركن الآخر كان خاليًا إلا من مكتبة صغيرة بها ثلاثة أرفف مليئة بكتب، أما الحائط خلفها فكان يمتلئ ببراويز أحدها به فراشات محنطة من كل الأشكال والألوان، وآخر به لوحات -بارزة- لنمور آسيوية مع صغارها، تمائم نباتية، منحوتات على شكل حيوانات. إنه أشبه بمتحف يجمع تحفًا من كل أنحاء العالم.

أشار الغامض إلى أرفف الكتب وقال:

- ربما تجد في هذه الكتب ضالتك.

اتجهت بحماس إلى المكتبة، بينما جلس هو على أحد الكرسيين تاركًا المكتب خاليًا. بعد إلقاء نظرة سريعة عليها اكتشفت أنها كتب كتبها آخرون عن الدكتور داهش، بدأت أتصفح عناوينها:

كتاب "آراء الأدباء والشعراء والصحفيين والأطباء والمحامين ورجال الدين والحكام والقضاة بمؤسس العقيدة الداهشية".

الغلاف عليه صورة ملونة للدكتور داهش في كبره يجلس إلى... رباه! إنه يجلس إلى هذا المكتب الموجود أمامي الآن! يرتدي نفس البذلة التي رأيتها في الصورة في الحجرة الأخرى، ويمسك في يده قلمًا، سن القلم يلامس ورقة صفراء، بينما المكتب مزدحم بمجسم للكرة الأرضية ومنحوتات لم أهتم بها. كان داهش لا ينظر إلى الكاميرا، بل ينظر إلى شيء ما أو شخص ما يقف في ركن الحجرة الأيمن.

(سأبحث هذا الأمر فيما بعد!).

خلف الدكتور داهش هناك خريطة كبيرة قديمة تفصيلية مكتوب في ركنها (قُطر العراق) رفعت رأسي لأنظر إلى الحائط خلف المكتب فلم أجدها. كان الحائط خاليًا.

العراق؟

متى سافر داهش إلى العراق؟ وماذا فعل هناك؟ ولمَ لم يكتب تفاصيل رحلته هذه؟ وهل لسفره هناك علاقة بإعلانه العقيدة الداهشية فيما بعد؟

كتاب "الدكتور داهش الأديب المعجز" بقلم غازي براكس، دكتوراه في الآداب.

كتاب "مختارات من كتب الدكتور داهش".

الغلاف لوحة مرسومة له ببذلة زرقاء وربطة عنق حمراء، يبدو قد قارب الأربعين في السن، نفس ملامحه وهو شاب، العينان!

أمسكت بهذا الكتاب وجلست على الكرسي الآخر أتصفحه باهتمام. كان السهر بالأمس قد جعل جفني يثقلان أثناء قراءتي للكتاب، فكنت أمرُّ سريعًا على الكلمات، ثم أشعر أن رأسي سيميل على صدري فأرفع رأسي، لا أعرف كم مر من وقت حتى انتفضت وأنا ألمح عنوان مقال:

مقتطف من كتاب: "الرحلات الداهشية حول الكرة الأرضية".

الرحلة الخامسة عام 1971

إيران، مصر، تركيا، رومانيا، النمسا، إسبانيا. إيطاليا

مقتطف من الرحلة:

اليوم هو الحادي عشر من آب/ أغسطس عام 1971

نهضت صباح اليوم من رقادي، وللفور بادرت إلى ترتيب حقائبي، وفحصت جواز سفري، وشاهدت التأشيرة التي أخذتها يوم أمس من سفارة إيران، بعد صعوبات وعرقلات حدث عنها ولا حرج.

وبدأ الإخوة والأخوات يتوافدون إلى منزلي لوداعي.

وما وافت الساعة الرابعة حتى كان يحيط بي 35 أخا وأختا.

...

وصلنا إلى المطار بعد عشر دقائق، وإذا بعدد من الإخوة والأخوات في انتظاري، فحييت الجميع ثم أخذت لنا صور سينمائية وفوتوغرافية.

* * *

هل كان هناك مؤمنون بالداهشية في مصر؟ تُرى من هم؟ ولماذا لم نسمع عنهم من قبل؟ من هؤلاء الخمسة وثلاثون شخصًا الذين كانوا في وداع داهش؟

أين هذه الصور الفوتوغرافية والسينمائية التي أخذت لداهش معهم؟

كانت هذه الأسئلة هي ما تشغل بالي بعد عودتي إلى حجرتي بالفندق، حتى إني لم أتبادل إلا عبارتين أو ثلاثًا مع فاطمة أثناء الطريق.

هناك ملاحظات غريبة أثارت انتباهي، وأطارت النوم من عيني لليلة الثانية:

1 - كان الدكتور داهش في مصر، وفق ما نشره في كتاب "الرحلات الداهشية – الرحلة الرابعة: أثينا/ ليبيا/ مصر ."1971

- 2 نشر نجيب محفوظ قصته الغريبة –أيضًا- بين مشواره الأدبي بعنوان "حكاية بلا بداية ولا نهاية" عام ،1971 وتدور أحداثها حول جيل جديد من الشباب يتمرد على تقاليد إحدى الطرق الصوفية، ويواجهون رئيس الطريقة. هل تُمثل القصة تمرد الدكتور داهش وتابعيه على التقاليد المسيحية الكنسية؟

لاحظ في القصة أن هناك متمردًا يقود مجموعة من الأتباع المخلصين لأفكاره.

ثم ينشر توفيق الحكيم مسرحيته "الدنيا رواية هزلية" عام .1974

- 3 نشر أديب نوبل روايته الملحمية "الحرافيش" عام ،1977 وفيها شخصية غريبة جدًا عن عالمه في "الحكاية السابعة": وهي "جلال صاحب الجلالة". وفيها يقرر جلال أن يتحدى الموت، وأن يكون خالدًا بطريقة "غير مألوفة" للناس، أفكار بطل هذه القصة غريبة عن الموت والحياة وخلود الروح، وهي الموضوعات التي أثارها الدكتور داهش في كتبه.

- 4 زار الدكتور داهش مصر مرة أخرى، وذكر ذلك في كتاب "الرحلات الداهشية – الرحلة الخامسة عشرة: اليونان/ مصر ."1980 – 1979

- 5 نشر نجيب محفوظ قصته "السماء السابعة" التي أشرنا إليها سابقًا في .1979

- 6 عاد الدكتور داهش يزور مصر وسجل ذلك في كتاب "الرحلات الداهشية – الرحلة السابعة عشرة: فرنسا/ إيطاليا/ مصر/ أمريكا/ كندا ."1981

- 7 في العام ،1980 ينشر الدكتور داهش كتابه "المهند الباتر".

وفيه يهتك المؤلف الأستار عن الحياة البشرية في شقائها وبطلانها ومثالبها، وينكل بالخونة والطغاة الذين قاسى منهم ما قاسى، وينصر الحق والعدالة والفضيلة في زمن اضطربت فيه الموازين والقيم.

- 8 تحوّل –فجأة– المسار الإبداعي لنجيب محفوظ لينشر رواية:

"أمام العرش" عام 1983، وفيها يُحاكم المؤلف حُكام مصر بشكل مباشر وصريح، على عكس ما عُرف عن أديب نوبل من حذر.

- 9 نشر الدكتور داهش كتابه "مذكرات يسوع الناصريّ -الجزء الأول" بيروت ،1980 دار النسر المحلق، جاء به:

تطرح حياة السيد المسيح -النبي المثير للجدل- حتى بلوغه الثلاثين تساؤلات جمة، منها: كيف قضى طفولته وصباه؟ كم مكث هو ووالداه في مصر ومن آواهم فيها؟ هل تلقى يسوع الفتى علومًا؟ وهل صنع معجزات قبل معجزته في قانا الجليل؟ وهل كان له أشقاء وشقيقات؟ هل بشّر بشيء من تعاليمه قبل إعلان رسالته؟ وهل اقتصرت على ما ورد في الأناجيل الأربعة أم إن منها ما ظل في طي الكتمان؟ ثم إنه مات في ظروف اختلف فيها المسيحيون والمسلمون.

- 10 في عام ،1985 ينشر نجيب محفوظ روايته الفرعونية الأخيرة "العائش في الحقيقة" عن قصة الفرعون المصري المثير للجدل إخناتون، الذي مات شابًا في ظروف غامضة! وفيها يبحث في تاريخ أسرته، وموقفها من دعوته، ويثير فيها الأسئلة حول ظروف موته الغامضة!

أصبح شاغلي البحث في عالم نجيب محفوظ الذي قرأته عشرات المرات، حتى وجدت أمرًا أثار انتباهي. في روايته "المرايا" التي نُشرت عام 1970، يكتب نجيب محفوظ عن شخصيات متعددة تربطهم مصائر الجيرة أو السياسة إلا شخصية واحدة، تبدو غريبة وسط هذا الحشد من الشخصيات، حتى اسمها يبدو غير مألوف "سابا رمزي" وتأتي قصته، وهي أقصر حكاية في الكتاب في صفحة 115، في ثلاث صفحات فقط!

لنقرأ معًا القصة:

"سابا رمزي"

زاملنا في المدرسة الثانوية. زاملنا عامين ثم اختفى. وعلى الرغم من أن زمالته ترجع إلى عام 1925 فما زلت أتذكر بوضوح عينيه اللوزيتين الحادتين، وقامته القصيرة لحد الرثاء. وكان رياضيًا متفوقًا في القسم المخصوص والكرة. كان الجناح الأيمن لبدر الزيادي، وكان تبادل الكرة بينهما يشكل خطرًا على أي فريق نلاعبه. لذلك اكتسب في المدرسة شهرة واحترامًا رغم قصر قامته. وكنا في أوقات الفراغ نقرأ المنفلوطي معًا، ونستظهر ما نختاره من جمله الموسيقية، وحدثته مرة عن روايات ميشيل زيفاجو، فتجهّم وجهه وسألني:

- أصدّقت ما جاء في رواياته عن الباباوات؟

فقلت ببراءة:

- ولمَ لا أصدقها؟

فقال بنبرة تحذير:

- إنه عدو للكاثوليكية، ولذلك فهو يتعمد تشويه سمعة البابا.

عرفت لأول مرة أسماء جديدة كالكاثوليكية والبروتستانتية والأرثوذكسية، وتحيرت بينها حتى أخبرني زميلنا ناجي مرقص أن المذهب المسيحي المصري هو الأرثوذكسية، وأن المبشرين أفسدوا بعض الأقباط، فجروهم إلى اعتناق الكاثوليكية أو البروتستانتية.

وراح جعفر خليل يداعب سابا رمزي قائلًا:

- الآن عرفنا أنك قبطي فاسد!

وجعفر خليل هو الذي أفشى سره، فقال لنا يومًا:

- فيكم من يحفظ السر؟

فتساءلت أعيننا باهتمام، فعاد يقول:

- الجناح الأيمن سابا رمزي يحب مُدرسة بمدرسة العباسية للبنات!

وراقبناه عقب انصراف المدرسة فرأيناه وهو يتبعها في طريقها حتى مشارف باب الشعرية. وكنا يومًا نقرأ بالتبادل في مجدولين، فلاحظت تهدج صوته حتى كف عن القراءة من شدة التأثر. وشعر بعيني فوق جفنيه المسدلين فتمتم:

- رأيتكم وأنتم تتبعوني.

ثم بمزيد من التأثر:

- أنا أحب مثل ستيفن وأكثر!

ووجد مني مشاركة وجدانية، إذ كنت عاشقًا مثله فقال:

- سأحبها مهما يكن الثمن!

فقلت له بعطف:

- لكنها مُدرسة وما زلت تلميذًا.

فقال بإصرار:

- الحب أقوى من كل شيء.

وقال:

- إني أحاول محادثتها، لكنها تتجاهلني، يقال إن ذلك أسلوب من الدلال، ما رأيك؟

- لا أدري.

- كيف أعرف إن كانت تحبني أم لا تحبني؟

- لا أدري.

- هل نسأل جعفر خليل وبدر الزيادي؟

فقلت محذرًا:

- كلا، إنهما يحبان المزاح وسيجعلان منك نادرة!

واستمرت مطاردته اليومية للمُدرسة بلا نتيجة، وأخذت ثقته بنفسه تضعف ويغلبه الحزن. وشهدنا عصر يوم منظرًا ليس من السهل أن يُمحى من الذاكرة. رأيناه يعترض المُدرسة بجرأة ويقول لها:

- من فضلك.

فمالت عنه ناحية وسارت في طريقها، فتبعها وهو يقول:

- لا بد من كلمة.

فهتفت به غاضبة:

- لا يمكن أن أحتملك إلى الأبد.

فقال بتوسل:

- اسمعي كلمة بكل أدب.

- دعني وإلا ناديت الشرطي.

وابتعدت تسير بخطوات غاضبة سريعة. وقف ينظر إليها بذهول. وبحركة سريعة غير متوقعة دس يده في جيبه. فاستخرج مسدسًا فسدده نحوها وأطلق النار!

صرخت الفتاة صرخة فظيعة، وارتفع وجهها إلى السماء في حركة متشنجة، ثم تهاوت على ظهرها. وجعل سابا ينظر إليها، ذراعه مدلاة، ويده لا تزال قابضة على المسدس، وظل كذلك حتى قُبض عليه. وفاضت روح الفتاة قبل مجيء الإسعاف. وعرفنا فيما بعد أن سابا سرق مسدس أخيه الضابط في الجيش ليرتكب جريمته عند اليأس، ولم ندر شيئًا بعد ذلك، ولم نره مرة أخرى.

لقد طبع في خيالنا صورة لا تُنسى ثم ذهب.

....

انتهت قصة "سابا رمزي" غير المنطقية.

كنت أقرأها وأضع خطوطًا تحت الكلمات التي تشير إلى الدكتور داهش. يقول النقاد عن رواية "المرايا" إنها تصور شخصيات عرفها نجيب محفوظ بشكل شخصي، لكنه أخفى أسماءها وموّه

بعض التفاصيل عنها، إلا أن كثيرين استطاعوا استنتاج معظم شخصيات الرواية الحقيقية.

إلا "سابا رمزي" كانت قصته الغامضة الغريبة غير الواقعية تخدع النقاد، وتجعلهم يعتقدون أنه شخصية خيالية.

لقد كان نجيب محفوظ شديد الذكاء، شديد الدهاء، يتجنب المباشرة في رواياته، لكن حدسي جذبني إلى هذه الشخصية بالتحديد.

تأملوا معي:

- 1 غرابة الاسم "سابا" الذي لا تجده في الشعب المصري حتى القبطي الوحيد المذكور في الرواية اسمه ناجي مرقص، وهو اسم مصري شائع.

- 2 هي القصة الوحيدة التي ليست بها أحداث سياسية مثل باقي القصص.

- 3 ذكر العداوة للكنيسة وتغيير المذهب، كما فعل داهش.

- 4 أن هذه القصة تشير بوضوح لواقعة انتحار "ماجدا حداد" بإطلاق النار على نفسها من مسدس بسبب الدكتور داهش، سواء أكان هذا السبب هو القبض عليه والنفي خارج لبنان أم بسبب ما قيل عن حبها له. النتيجة أن داهش هو السبب وراء انتحارها.

وفي الحقيقية، لقد أشار نجيب محفوظ بأن هذه قصة رمزية باختياره للقب البطل "رمزي" في إشارة ذكية لمن يريد!

شغلني البحث عن أصل اسم "سابا" فلم أجد له معنى يرتبط بالقصة حتى فكرت في أن الاسم هو اسم أجنبي يُكتب هكذا: SABA

كتبت كل حرف في سطر منفصل أمامي، وشرعت أفكر طويلًا –يبدو أن قراءتي في الصغر لروايات أجاثا كريستي قد أفادتني، حتى وجدت الرابط الخبيث:

S = سليم.

A = آذار/ مارس وفيه أعلن لأول مرة عن العقيدة الداهشية.

B = بيروت.

A = العشي.

وجدتها!

لكن...

لمَ فعل نجيب محفوظ ذلك، ولمَ أنهى القصة بعبارة: لقد طبع في خيالنا صورة لا تُنسى ثم ذهب.

أسئلة! ألا تنتهي الأسئلة؟

ورجعت إلى أوراقي، وظللت لساعات أحاول أن أبحث عن سبب ما يتعلق بالدكتور داهش. حتى وجدت خبرًا صغيرًا يقول إنه منذ 2 آب/ أغسطس 1969، بدأ الدكتور داهش رحلاته حول العالم، في تلك الفترة هدأت الضجة التي أثارها في لبنان.

لقد كتب داهش عن هذه الرحلة في كتاب سماه "الرحلة الأولى من الشرق إلى الغرب مع الدكتور جورج خبصا" .1969

لكن الكتاب لم يُنشر أبدًا!

هل كان نجيب محفوظ يتنبأ "باختفاء خبر داهش" الذي ملأت أخباره الدنيا؟

هل كان نجيب محفوظ يعرف الدكتور داهش شخصيًا؟

هل تأثر نجيب محفوظ بشخصية وكتابات الدكتور داهش؟

هل كان يقابله عندما كان الدكتور في مصر أعوام 1981 /1980/ 1971؟

هل هتلر هو نابليون بونابارت إذن؟

وهل توفيق الحكيم هو المسرحي النرويجي الشهير هنريك إبسن؟

وهل سعد الله ونوس هو توفيق الحكيم؟

وهل هند رستم هي مارلين مونرو؟

وهل يوسف السباعي هو الروائي الرومانسي الشهير ستيفان زفايج؟

هل نجيب محفوظ هو ديستوفسكي؟

هل بوذا هو كونفيشيوس؟

وهل يوسف إدريس هو أنطوان تشيخوف؟

تعبت من الأسئلة!

تعبت!

* * *

الفصل الثالث

صواعق داهشية

مـــاري حـــداد

ما الغرض من خلقنا؟

هل هناك حقيقة مطلقة؟ هل كنا موجودين قبل أن نولد؟ هل سنوجد بعد موتنا؟ هل تصرفاتنا محددة سلفا، أم هي خاضعة لإرادة حرة؟ من نحن؟

يعتبرني الكثيرون سيئة الحظ، نظرا لما جرى لي من مآسٍ في حياتي، إلا أنني أعتبر نفسي محظوظة، لأني عاصرت وشهدت بعيني وجالست من جاء لهداية الناس.

وكما أن اسم إسرائيل قد أعطي روحيا ليعقوب، كذلك اسم داهش أعطي روحيا إلى سليم العشي.

إن الترجمة الحرفية لاسم داهش هي "مذهل".

كيف أصبح ذلك الطفل، الذي وُلد في فلسطين، وتربى يتيم الأب في ملجأ بعد انتقال أسرته إلى لبنان، ذلك الإنسان السماوي؟

إن حياة هادينا الحبيب في حد ذاتها تدل على أن هناك يدًا إلهية كانت تعتني به، وتُعده لتلك الرسالة الثقيلة التي سيواجه بها العالم.

في 23 آذار/مارس 1942، أعلن الدكتور داهش في بيروت رسالة روحية دعا فيها الناس إلى الأخذ بجوهر أديانهم، بعيدا عن قشورها أو مظاهرها الوثنية. كما دعاهم إلى الأخوة الإنسانية على تباين الأعراق والقوميات، وإلى الإيمان بأنهم -مثلهم في ذلك مثل سائر المخلوقات- خاضعون لنظام روحي عادل يقضي عليهم، تبعا لاستحقاقهم، بالتقمص على الأرض أو في عوالم أخرى ريثما يتسنى لهم الارتقاء الروحي بإرادتهم، والاندماج، أخيرا، في عالم الروح.

لا أملّ أبدًا من أن أروي كيف آمنت بالدكتور داهش، أنا وزوجي وبناتي. بل إن هذه الذكرى تملؤني سعادة لا أجد سبيلًا إلى وصفها. على كثرة ما رسمت من لوحات طافت أوروبا وعُلقت في متاحف باريس، وعلى كثرة ما خطّت يداي من كتب بالفرنسية، إلا أن هذا اللقاء الأول مع الدكتور داهش يفوق –في ذكراه– كل ما حبتني به الحياة من مسرات.

في 16 آب/أغسطس من عام 1942، كنت مع أسرتي نحتفل بعيد "السيدة" في بلدة "جورة الترمس" بمنطقة كسروان في جبل لبنان.

في تلك الأثناء، كانت ابنتي آندرة في مستشفى الدكتور رزق، تضع ابنها البكر، وفي الثامن من

أيلول/سبتمبر لدى مغادرة أندرة المستشفى، قرعنا منزل الدكتور داهش الذي كان بجانب المستشفى، فاستقبلنا بحفاوة بالغة، وفي خلال المقابلة طلب زوجي، إذا كان ممكنًا، أن يسمح له بجلسة روحية يتحقق فيها شيء من الأعاجيب التي أسمعنا الكثير عنها صديقنا الشاعر الشهير حليم دموس، فسُمح له بذلك، فطلب زوجي أن يحصل فوزًا على غرض معين موجود في بيتنا الكائن في الطرف الآخر من المدينة، وهو عبارة عن قطعة أثرية من الخزف معلقة بإحكام في خزانة الاستقبال.

وفي الحال، ظهرت القطعة المطلوبة بين يديه، وذلك على مرأى أشخاص كثيرين. كان الحادث بالغ التأثير، شيئًا ينتقل من بيت إلى آخر بسرعة البرق!

أخذتنا الدهشة وتملكنا الجمود، فقررنا متابعة اختباراتنا مع الدكتور داهش. شرع الزائرون يتبادلون أطراف الحديث مع الرجل العجيب، إلى أن تطرق الحديث إلى بلدة "جورة الترمس" التي كنا نصطاف فيها.

وحدثت مفاجأة حضرها الجميع، ومنهم الدكتور جورج خبصا، نطاسي الأمراض الجلدية الشهير، والأديب المعروف يوسف الحاج، والشاعر طائر الصيت حليم دموس، إذ أخبرنا حليم قائلًا:

... كنت سائرًا في المدينة برفقة الدكتور داهش، وعلى مقربة من مركز البريد خاطبني الدكتور داهش قائلًا:

- انظر، هنالك في الفضاء، بالونات الدفاع المؤقت، لقد شُدت إلى الأرض بحبال فولاذية غليظة.

أجبته:

- نعم، إنها بالونات الدفاع المؤقت للجيش البريطاني.

ثم تابع:

- انظر هذا البالون.

وأشار بإصبعه إلى أحدها، في اللحظة نفسها، رأيت البالون المُشار إليه يُطيعه فيقطع حبله الفولاذي، ويطير بعيدًا حتى يغرب عن عيني. سألته مدهوشًا عن سبب الحادث فأجابني:

- دوّن في مفكرتك تاريخ هذا النهار، واعلم أن البالون سيحلق إلى ما فوق قرية لبنانية حيث يهبط، سبب ذلك أن في تلك القرية تنزل أسرة ستؤمن بالرسالة الداهشية، وستقوم فيها بدور خطير.

وما إن تناهى الخبر إلى مسامعي -أنا وجورج- حتى شدهنا عجبًا. إذ سقط البالون بتاريخ 16 آب/ أغسطس في قرية "جورة الترمس" بجوار الفندق، حيث كنا نصطاف به مع بناتنا.

آمنا به على الفور، وشهدت مع آخرين الكثير من المعجزات والخوارق التي ثبتت إيماننا به كمبعوث سماوي لإنقاذ الجنس البشري الذي تردى في مهالك الشهوات الدنيئة حتى تدنى. وأنا

حكيت "بعضًا" من هذه الخوارق التي رأيتها بعينيّ وسمعتها بأذني في وجود كبار رجال المجتمع اللبناني من أطباء وصحافيين وقضاة وأدباء في كتابي"معجزات الدكتور داهش وظاهرته الروحية".

ينطوي الكتاب على مختارات من الظاهرات الروحية التي حدثت بين كانون الثاني/يناير، وتموز/يوليو 1944.

وسأذكر نموذجًا منها:

كان للدكتور داهش عدد من كتبه المطبوعة. وقد تسلم واحدًا منها قبل عدة أيام. كنت وحدي في الردهة، وجاء إليّ حاملا نسخة في يده، وقال لي بأنه يودني أن أمتلكها. قبلت بكل سرور، لكنني أصريت على أن أدفع الثمن، لأن ما هو مطبوع ليس مجانيًا. قال لي: "كما تشائين".

أعطيته المال بالعملة الأمريكية، ما إن أخذ المال حتى وضعه في كفه، أقفلها، وسألني قائلا: "أين المال؟" فأجبته: "إنه في يدك". فتح يده، وكانت فارغة. ثم سألني قائلا: "ماذا تظنين أنه حدث هنا؟".

فأجبته: "لا بد أن يكون قد وضع على المال سيالا روحيًا أخفاه".

ثم قال اتبعيني. دخلنا إلى إحدى الغرف التي كانت فيها خزينة. طلب مني فتح الدرج العلوي. حاولت فتحه لكنه كان مقفلا.

رسم الرمز الداهشي عليه "نجمة خماسية"وطلب مني أن أحاول مرة أخرى، وفعلت، وفتحت هذه المرة. نظرت داخل الدرج، فرأيت بين عدة أشياء، المال الذي أعطيته إياه من أجل الكتاب. مع قطعة من الورق مدون عليها "من ماري حداد"، وكانت موضوعة على النقود.

إن المال لم يختفِ تمامًا، بل اختفى وتجسّدَ في موضع آخر.

إن ما حدث لي من اضطهاد، قاده أخي ميشال وأختي لور لأبلغ دليل على أن هذا العالم كان في طريقه للانهيار والدمار والمحو، لولا أن أرسل لنا الله من يهدينا ويبعث فينا الأمل الجديد.

أدى الاضطهاد الذي تعرّض له الدكتور داهش إلى انفصالي وأسرتي عن الكنيسة الكاثوليكية التي كانت تحرّض ضد الدكتور داهش.

إن المسيحية هي عقيدة عبادة الحزن. أما الداهشية، فهي عقيدة الدكتور داهش الذي يعترف بما أنزل على الأنبياء والمرسلين، ويحترم جميع العقائد الدينية التي أوحى بها الله على أيدي رسله، لكنه لا يعترف ببعض الطقوس الدينية المسيحية كعبادة الصور الدينية، والاحتفاظ بالأيقونات والمتاجرة بها، وينكر صكوك الغفران، والقيام بالتبخير أمام الهيكل، والتمتمة والتعزيم أثناء إقامة الصلوات العامة في الكنائس، ولا يعترف كذلك بسر الاعتراف المقدس. ويعتبر كل ما سبق بدعًا ابتكرها رجال الدين لأهداف ذاتية، إذ لم يوص بها المسيح ولا رسله.

فالداهشية إذن رسالة إلهية تهتم بلباب الدين لا بقشوره، فهي تحترم جميع الأديان المُنزلة،

وتريد من الذي ينتمي إليها أن يطبق الأقوال السماوية عمليا "لا نظريا".

وتوالت الحوادث المؤسفة، من تجريد الدكتور داهش من جنسيته اللبنانية، ثم نفيه خارج لبنان، وجاءت فاجعتي الكبرى بعد استشهاد ابنتي ماجدا في رسالة احتجاج قوية زلزلت كيان بشارة الخوري.

وإذ ذاك، أصدرت عشرات الكتب السوداء منددة بالعمل الإجرامي الذي ارتكبه رئيس الجمهورية، ووزعت الكتب سرًا على الشعب اللبناني الذي كان يستيقظ ليرى طرق بيروت قد فُرشت بالكتب السوداء، وفيها تفاصيل الجريمة الهائلة.

وقد سجنني بشارة الخوري مدة عام كامل قضيته مع المجرمين ومرتكبي القبائح، إذ لم يكفه انتحار ابنتي المفداة ماجدا، بل تكملة لأحزاني الهائلة، وإتمامًا لأشجاني المرعبة، زجني في أعماق السجون، والسجن كان حريًا بمن اعتدى على الحريات وعلى الدستور اللبناني الذي أقسم يمين المحافظة عليه، وكان أول من حنث بيمينه.

بعد شهور قضيتها في السجن، فكرت لور أن تتهمني بالجنون، فأمر الرئيس -بإيعاز من زوجته- بوضعي في مصح الأمراض العقلية "العصفورية"، لكنهما اضطرا إلى إطلاق سراحي مكرهين بعد الحجر عليّ عدة أشهر.

كم من أناس يجدون سعادتهم حيث يجد الآخرون هلاكهم!

بعد إطلاق سراحي عدت إلى كفاحي بضراوة أشد، فيقبض عليّ ثانية فأسجن وأسام العذاب، أذكر أني كتبت في إحدى رسائلي لجبران مسوح، صاحب جريدة "المختصر" الصادرة في بوينس آيرس:

... لقد جلدوني بضعة أيام باستمرار حتى تمزق لحمي وتدفق دمي، وأصبحت أقرب إلى الموت مني إلى الحياة.. وقد جلدوا قريني جورج حداد، وصهري جوزيف حجار.. كما أنهم جلدوا الشاعر حليم دموس على الرغم من كبر سنه...

وقد ورد في جريدة "الحياة" البيروتية بتاريخ 12 حزيران/يونيو 1947، بصدد صدور الحكم:

... وأصدرت المحكمة عليهم الأحكام التالية:

ماري حداد، ستة أشهر، جورج حداد، أربعة أشهر، جوزيف حجار، ثلاثة أشهر، حليم دموس، أربعة أشهر.

بعد الإفراج عني كنت قد انتهيت من كتابة كتابين، وهما:

كتاب "مذكرات ماري حداد وتأملاتها في أثناء وجودها القسري في مصح العصفورية":

في هذا الكتاب، أكشف عن جرائم بعض اللبنانيين وذكرتهم بالاسم ممن يلجأون إلى اتهام أقربائهم اتهامًا كاذبًا بالجنون ليحجروا عليهم قانونيًا ويستولوا على ثرواتهم.

(لم يُنشر هذا الكتاب ولا يزال مخطوطًا إلى اليوم نظرًا لحساسية وخطورة الموضوع الذي يتناوله).

كتاب "مذكرات ماري حداد في السجن":

صدر عام 1947، ودونته أثناء سجني ستة أشهر.

ومن المواقف التي أثارت استغرابي وذكرتها في هذا الكتاب أثناء التحقيق معي، حيث سألني مدير البوليس العدلي في ذلك الوقت إدوار أبو جودة:

كيف يعيش الدكتور داهش ماديًا وهو لا يعمل؟

وأجبته: أنني رأيت عنده من الأموال أكداسا أكداسا، وربما عز على أي مصرف أن يحوز مثلها. وقد رأيته يعطف على الفقراء، لكنه يقتصد على نفسه.

بالطبع لم يصدقني، وأشار بتحويلي إلى "العصفورية"

يبدو أن قدر كل الرسل السماوية: التكذيب.

الليلة الأولى التي قابلنا فيها الدكتور داهش –بعد عودته سرًا إلى لبنان– كنا أنا وجورج زوجي، نجلس معه فقال لنا كلمات غريبة:

- لن أجد ما أقوله لكم إلا أن أستعير-مع بعض التغيير- تلك الكلمات البليغة التي قالها النبي محمد إلى الأسرة التي تعرضت للتعذيب، لأنها آمنت به "صبرًا آل حداد فإن موعدكم الجنة".

من الأمور التي كنت أحبها في الدكتور داهش –الإنسان- هو شَغَفه بالفنِ، وبخاصة فنّي الرسم والنحت.

ومن أخبار حداثته في هذا الشأن؛ أنه كان ذات يومٍ يرافق والدته في مدينة القدس، فوقعت عيناه على لوحة فنية معروضة في واجهة أحد المتاجر، فوقف يتأملها. ولمّا فطنت والدته إلى تخلفه عنها، انثنت تبحث عنه حتى إذا ألفَته مسمّر العينين باللوحة، نهرته وجذبته من يده.

وقد باشر جمعَ اللوحات الفنيّة منذ عام 1930، حتى تجمّع له ما يُنيف علي ألفَيْ صنيع فني.

وهذا ما شجعني أن أرسم له لوحتين، الأولى كانت قبل محنته، وكانت ابنتي ماجدا، قاطنة الفراديس السماوية، معجبة بها للغاية.

أما الثانية، فرسمتها بعد انتهاء هذه المحنة العصيبة، وفيها صورته جالسًا مرتديًا بذلة زرقاء اللون، ورباط عنق من نفس اللون، وقد أسند رأسه على قبضته اليمنى المضمومة، وبدا مهموم الملامح، كان من السهل عليّ -كفنانة- أن أرسم ملامحه من الذاكرة، إذ كنت قد اجتمعت معه كثيرًا، لكني كرسامة، كنت أجد صعوبة كبيرة في رسم عينيه كما هما في الواقع، وأعتقد أني مهما حاولت فإني لم أستطع نقل التعبير الحقيقي لهاتين العينين اللتين تجمعان بين الجاذبية

والإقناع والرهبة والتأمل في المجهول والطيبة والذكاء.

ومما لا أنساه؛ أني كنت قد رسمت لوحة بها منظر طبيعي وفيه شجرة عليها عصفور جميل، كانت زينا تقف مع الدكتور داهش يتأملان اللوحة، كانت قد تجاوزت العشرين ببضع سنوات، وبنزق الشباب فوجئت بها تسأل الدكتور داهش إذا كان يستطيع أن يحوّل العصفور الذي رسمته إلى عصفور حقيقي، فابتسم لها الدكتور داهش، ومد يده إلى اللوحة، ورسم النجمة الخماسية بسبابته حول العصفور المرسوم، وأمام عيوننا المذهولة، تحرك العصفور خارجًا من اللوحة، فأمسك به الدكتور داهش، وأعطاني إياه في يدي، فوضعته داخل قفص كان قد خلا بموت عصفوره، وظللت محتفظة بهذا العصفور لمدة سنتين، رآه كل من زار بيتي وقصصت عليهم قصته.

لم نكف يومًا عن التعرض إلى المحن القاسية، حيث مرت بنا محنة جلل كادت تودي بعقولنا لولا رحمة الله بنا. وقد أكسبتني هذه المحن خير صديقة، وهي أختي الداهشية نجوى سلام براكس، زوجة الدكتور غازي براكس.

كانت نجوى لا تكاد تفارقني بعد أن عشت مع زينا وحدنا، وكانت في تلك الفترة قد ألفت كتابًا سمّته "الدكتور داهش الأديب العملاق بين كواكبه الأدبية".

وطلبت مني أن أرسم لوحة جديدة للدكتور داهش لتزين غلاف الكتاب عند طباعته. كان هذا هو الكتاب الأول لها، بينما كنت توقفت عن الرسم لسنوات منذ آخر لوحة رسمتها للدكتور داهش. لم أجد في نفسي ميلًا للعودة للإمساك بالفرشاة والوقوف أمام لوحة بيضاء.

كانت نجوى تشجعني. لقد فقدت زوجي، رفيق حياتي وابنتي الكبرى وتزوجت أندرة وسافرت مع زوجها، ولولا لقاءاتي مع الدكتور داهش والإخوة الداهشيين الذين كانوا يزيدون في كل يوم، لما وجدت لحياتي معنى.

حتى ابنتي زينا، وجدت لنفسها هدفًا حيث كرست حياتها للكتابة عن الدكتور داهش، وتوثيق الأحداث التي تمر بنا، والمحن التي نتعرض لها في سبيل عقيدتنا. إلى أن جاء هذا اليوم الذي لن أنساه حتى في حياتي الثانية. إن ما سأقصه الآن –وإن بدا غريبًا بالنسبة للعوام– فإنني أقسم أني شاهدته بعيني أكثر من مرة.

لقد كانت للدكتور داهش ست شخصيات روحانية، تتجسد أحيانا لتبدو الواحدة منها، أو كلها أو بعضها، أمام الكثيرين كنسخ طبق الأصل عنه تماما، شاهدت مرة وبأم العين ست شخصيات للدكتور، كل واحدة منها هي الأخرى نفسها، لكنه كان يرتدي في كل منها بذلة مختلفة، وهذا المشهد رآه الكثير من الأصدقاء. وهو يثير في النفس الذهول والارتباك.

ولقد حدث في عام 1947، حادث زلزل أركان لبنان.

حيث أعلن إلقاء القبض على الدكتور داهش في منطقة أذربيجان الإيرانية، لم تكن لديه أوراق لإثبات هويته، ولأنه كانت هناك ثورة دموية جارية، تم اعتباره جاسوسا.

ونتيجة لذلك، عصبت عيناه، وتم تنفيذ حكم الإعدام فيه رميا بالرصاص يوم 1 تموز/يوليو 1947. وقد تم تصوير الإعدام وتوثيقه معززا بوثائق وصورة نشرتها صحف بيروت.

وما زلت حتى اليوم أحتفظ بصورتين واضحتين للدكتور داهش: الأولى تراه فيها واقفًا معصوب العينين، مرتديًا بنطلونًا داكن اللون، وقميصًا أبيض وخلفه حائط قبل تنفيذ حكم الإعدام بالرصاص.

أما الصورة الثانية، فتراه وقد انطرح أرضًا بعد إطلاق الرصاص عليه، ولأنهم أزالوا العصابة عن عينيه، فقد بدا وجهه واضحًا للغاية، إنه الدكتور داهش بلا شك. دقق في الملامح وشكل الجسم، لن تشك لحظة أنه الدكتور داهش.

والحق أنه فعلًا الدكتور داهش الذي تم إعدامه.

وعندما نشرت الصحف اللبنانية الخبر -موثقًا بهاتين الصورتين- تزلزل لبنان، وانهالت المقالات التي ترثي الدكتور داهش، حتى إنه تم جمعها في كتاب بعد ذلك، وطُبع تحت عنوان: مراثي الأدباء والشعراء والصحفيين والأطباء والمحامين ورجال الدين والحكام والقضاة بمؤسس العقيدة الداهشية.

وتحت هذا العنوان كانت صورة الدكتور داهش بعد إعدامه تحتل الغلاف.

ما أثار دهشتي –فيما بعد– أن قرأت كتابًا للدكتور داهش بعنوان "ناقوس الأحزان أو مراثي النبي إرميا" كان قد كتبه منذ سنوات. ولعلّ الدكتور داهش هو أوّلُ من أعاد صياغةَ مراثي النبيّ إرميا في مدينة أورشليم "القدس" بعد نكبتها في القرن السادس ق. م، وتشريد أهلها. ولقد جاءت صياغته سلسة العبارات، غنية بالتشابيه الجديدة. الغريب هو أن غلاف هذا الكتاب، طُبع بنفس لون "مراثي الدكتور داهش"، حتى إن صورة النبي إرميا على الغلاف كانت بالأبيض والأسود، كما صورة إعدام الدكتور داهش. يبدو أن هادينا الحبيب لن يتوقف عن إثارة دهشتنا.

ولأعود إلى قصة إعدامه، على الرغم من أن لبنان زلزلته هذه الحادثة –بالطبع فرح بها أعداؤه– فإننا لم نتأثر كداهشيين مما حدث!

فمن تم رميه بالرصاص لم يكن سوى أحد شخصياته الروحانية، بينما كان هو حيا يُرزق في لبنان، حيث إنه كان يسكن معنا في منزلنا بين أتباعه، وقد أطلق على المنزل منذ تلك الفترة لقب "منزل الرسالة" والشخصية التي أعدمت آنذاك هي إحدى شخصياته الست.

ولتوضيح معنى وجود الشخصيات المتعددة للدكتور داهش، فقد قال إنها عبارة عن سيالات روحية تعتبر امتدادات له، كائنة في عوالم علوية متباينة، تتجسد على الأرض بهدف تحقيق غايات روحية خطيرة، ولذلك كانت تتخذ شكله البشري تمامًا. ومن ثم تغادر الأرض إلى عالمها بعد إتمامها مهامها.

لم يكن الدكتور داهش الإنسان هو الذي أعدم. فمن أعدم كان نظيرًا روحيًا له آخذًا مكانه. الأمر نفسه حدث في وقت الصَلب. لقد رأى الناس يسوع المسيح على الصَليب، لكن يقول القرآن:

وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم (سورة النساء، الآية: .(157

وفي كلمات أخرى، من صلب كان شبيها له، وبما أن نظيره هو كيان روحي، فإنه غير خاضع لقوانين الطبيعة.

ويشار إلى الكيان الروحي في الداهشية على أنه "شخصية روحية".

شجعتني هذه الخارقة أن أرسم لوحة جديدة للدكتور داهش لتكون على غلاف كتاب صديقتي نجوى براكس.

كنت ألمح -أحيانًا- نظرات الرثاء على وجه نجوي على الرغم من محاولاتها إخفاءها. أعرف أن ما مررت به قد ترك بصماته على وجهي، شعري تحولت صفرته إلى اللون الأبيض في سنوات المحنة، نظارتي المستديرة التي أضعها على وجهي أصبحت عدساتها أكثر سمكًا، استقلت من رئاسة نقابة الفنانين، واعتزلت الظهور العلني وتوقفت عن إقامة المعارض الفنية.

تكررت اجتماعاتي بالدكتور داهش، وكان لي نصيب المشاركة في أكثر من جلسة روحية، كانت الروح خلالها تحتله، وتظهر أعمال لا تقع ضمن نطاق التفسير المنطقي لنواميس الحياة.

ماذا يحصل خلال الجلسة الروحية؟ كان الدكتور داهش يكتب على ورقة عبارة "بحق النبي والحبيب الهادي أن يُسمح لي بجلسة روحية"، وترفق هذه العبارة برسم الرمز الداهشي، الذي هو كناية عن نجمة خماسية، ثم تُطوى الورقة وتُحرق، والكتابة هذه هي عبارة عن صلاة موجزة توجّه إلى الخالق عزّ وجلّ ابتهالًا.

تعقد الجلسة الروحية في وضح النهار، بعيدًا عن أية ستائر أو ضبابية، فيُشاهد فيها من الخوارق ما يؤكد أن عالم الروح هو عالم حقيقي بكل ما للكلمة من معنى. وأن غاية هذه الروح هي العودة بالإنسان إلى الإيمان الديني الصحيح، أي بالله والثواب والعقاب واليوم الآخر.

بعض ممن عايشوا خوارق الدكتور داهش، لم يؤمنوا برسالة صاحبها، لكنهم في المقابل لم ينكروا أيضًا ما عاينوه من خوارق ومن هؤلاء عشرات السياسيين البارزين كرئيس المجلس النيابي آنذاك صبري حمادة، ورئيس الوزراء الأمير خالد شهاب، إضافة إلى وزراء ونواب لا يمكن الإفصاح عن هويتهم بحسب طلبهم.

ذات مساء جمعتنا جلسة -أنا وزينا وبعض الداهشيين- فسأله الدكتور جورج خبصا، طبيب الأمراض الجلدية الشهير:

- هل ينبغي إيلاء أمر الخلق على أنه رغبة الله في تجربة نفسه، رغبة الله في رفقة، أو رغبة الله في التعبير عن نفسه؟

أجابه هادينا الحبيب:

- في الحقيقة، لا أحد في العالَم يعلم ما الهدف من خَلق الكون وما هو فيه.

يقول القرآن: وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين (38) ما خلقناهما إلا بالحق ولكن

أكثرهم لا يعلمون (39) إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين (سورة الدخان، الآيات .(40 : 38

خذ وجهة نظر أولئك الذين يعتنقون الدين المسيحي، الذين يؤمنون أن يسوع المسيح هو الله، بأنه جاء إلينا في هيئة إنسان لينقذنا بإخضاع نفسه للسخرية، للضرب والشتائم والصلب من كائنات من المفترض أنه قد خلقها! في أي مكان في الكتاب المقدس ادعى أنه هو الله تعالى؟ في الواقع، رفض يسوع حتى أن يُدعى "السيد الصالح" لأنه لم يكن كاملا. "لماذا تدعوني صالحا؟ ليس أحد صالحا إلا واحد وهو الله" (مَرقُس ❞ .(18:10

وإلى جانب ذلك، إذا كان يسوع المسيح هو الله، فإلى من كان يصلي قبل وقت قليل من انتقاله؟ هل يصلي الله إلى نفسه؟ وأيضا، عندما كان على الصليب لماذا قال: "إلهي إلهي لماذا تركتني" (مَتّى 46:27) إذا كان يسوع المسيح هو الله فسؤاله غير منطقي.

كان يسوع المسيح رسولا لله لا أكثر. وبرغم عظمته نزل إلى الأرض لإيصال رسالة لنا. إن رسالته عن الحب والرحمة والبر لمقبولة دون شروط عند من يؤمن بالفلسفة الداهشية.

أذكر مرة أن الشاعر والأديب المعروف موسى المعلوف، طلب من الدكتور داهش أن يُطلق اسمًا على ولده المولود حديثًا. فعقد جلسة روحية، وكان ينضم إلينا الدكتور فريد أبو سليمان ونقولا ضاهر. وكتبنا أسماء كثيرة على قصاصات ورقية، رغبة لطلب الدكتور، ثم سحب المعلوف ورقة كتب عليها اسم مُهنّد، أي السيف الباتر. في ذلك الوقت جرى للدكتور داهش احتلال روحي، طلب خلاله من موسى المعلوف أن يتوجه إلى المكتبة قبالته، وأن يختار كتابًا معينًا. وجد فيه هذا الأخير ورقة كُتب عليها "سيحضر موسى المعلوف في اليوم الفلاني إلى زيارتنا، وسيطلب منك تسمية ولده، وسيدعى الطفل مُهنّد في الساعة الفلانية".

قرأت كل كتب الدكتور داهش؛ التي كان من دواعي سروري أن حفيدي إيليا حجار، قد أنشأ دار النسر المحلق في بيروت، وطبع هناك كل كتب الدكتور داهش حتى تلك الكتب التي ألفها في شبابه. ومن أجمل الكتب التي أحتفظ بها دائمًا بجوار سريري لأقرأ فيها صفحات قبل أن أخلد للنوم كتابه "كلمات".

رأى الدكتور داهش في مطلع عام 1936، أن يدون في كل يوم من أيامه كلمة. وما انقضى ذلك العام حتى تحصلت لديه مجموعة حكم وخواطر ضمها هذا الكتاب.

هي مَرايا نفسه وأفكاره في مختلف الأحوال، وهي أيضًا موجز آرائه في موضوعات كثيرة: في المرأة والصداقة والكتب والحرية والظلم والحياة والموت والدين والإيمان والشقاء والسعادة.

مقتطفات من الكتاب:

- حين تشك بأقرب المقربين إليك، تبدأ في فهم حقائق هذا الكون.

- المرأة هي الشيطان الرجيم، اتخذ جسدها ملجأ حصينًا ومعقلًا أمينًا.

- كلما ابتعدت عن المرأة ازددت قربا من السماء.

- المرأة سبب شقائي الدائم.

- إن الصديق الحقيقي لا وجود له في هذا العالم الكاذب.

- أيتها المرأة العظيمة بقوتك، الهائلة بجبروتك، كم أنت تمرين بخاطري ولا بد لي من يوم أرتقي بسببك إلى قمم المجد والفخار أو أنحدر إلى لجج النار.

- الصداقة، الولاء، الإخاء، نكران الذات. كلمات شعرية نستعملها في الكتابة فقط. الحقيقة ألّا وجود لها أبدا.

- لا بارك الله في تلك الساعة التي فتحت فيها عينيّ، فإذا بي في مكان يطلقون عليه اسم العالم.

- الحياة سلسلة شرور متصلة الحلقات.

- من قال لك إنه سعيد، قل في نفسك إنه مجنون يهذي.

- أنا أشك بالملائكة فكيف أؤمن بالبشر.

- أمجاد هذا العالم وهم باطل ولون حائل وظل زائل.

- أنا اليوم غيري بالأمس.

* * *

على الرغم من أني كتبت العديد من الكتب فإن أحبها إلى قلبي هو كتاب "صواعق داهشية"، وهو الجزء الأخير من سلسلة "وثائق تتكلم" التي تشرح الاضطهاد وملابساته في جميع مراحلها، وهو ينطوي على جميع الرسائل والعرائض والبيانات التي كتبتها وقدمتها إلى المسئولين الرسميين في بيروت، وإلى الدبلوماسيين الأجانب والأمم المتحدة. كما كنت حريصة أن أقضي عمري في نقل عدة مؤلفات للدكتور داهش إلى اللغة الفرنسية.

لم يكن الدكتور داهش ساحرًا لكن بكلمة مختصرة كان تقيًا ومؤمنا، بالإضافة إلى هذه الصفات لم يستخدم مهارته وأعماله الخارقة في مضرة إنسان أو انتقام من أحد، وهذا ما جعله يحافظ على سمعته بين جماعتنا، ومحبته لا تزال في قلوب من رآه. وسأظل أدين للدكتور جورج خبصا بجميله، حيث كان أول من عرفنا على هادينا الحبيب. بفضله مددت يدي ولمست جميع البحار، وتعلمت أن الحياة كلها خصام مع الذات.

آه... لقد كنتِ يا ماجدا، في إبّان صباكِ، عندما أطلقت الرصاصة على صدغك فأردتك، وا حرّ قلباه عليكِ!

كم من أشياء لا توصف مشت هناك!

وقد تقدم بي العمر وفعلت السنون فعلها الذريع بي، لكن هذه السنين المنصرمة لم تستطع إزالة صورتك التي حُفرت في قلبي، ولن تُمحى حتى ولو طواني الموت بين ذراعيه الرهيبتين.

ستعودين يا ماجدا –في تقمصك الثاني– إلى هذه الحياة، ولكن هل سأتعرف إليك؟

مكتبة
بيت الحصريات
maktabbah.blogspot.com

* * *

تعقيب المؤلف:

قلت لفاطمة في حيرة عندما جلسنا في كافتيريا الفندق، بينما أشرب فنجان قهوتي الثالث هذا اليوم (كنت لا أشرب القهوة إلا مرة في اليوم من قبل) وكان الجو معتدلًا في تلك الأمسية:

- لم أكن أتخيل أن بشارة الخوري، الشاعر الرقيق صاحب القصيدة الشهيرة التي غناها فريد الأطرش وكان مطلعها:

عش أنت إني مت بعدك وأطل إلى ما شئت صدك

أن يكون بكل هذه القسوة مع عائلة زوجته.

نظرت لي فاطمة باستنكار مرحٍ للحظات ثم انفجرت ضاحكة، تعجبت لضحكها على كلامي الجاد.

بعد أن توقفت عن الضحك قالت:

- أنتم -المصريين- تعشقون المزاح!

لم أكن أمزح، ويبدو أن الجدية التي كانت مرتسمة على وجهي –بالإضافة إلى علامات الإجهاد وقلة النوم– قد جعلتها تستعيد لهجتها الجادة وهي تقول لي:

- سامح، أنت تخلط بين بشارة الخوري، الشاعر الملقب بالأخطل الصغير، وبين بشارة الخوري، أول رئيس للبنان بعد الاستقلال.

كنت أحب أن أسمع اسمي تنطقه بصوتها الرقيق، شعرت بالحرج بسبب هذا الخطأ الذي وقعت فيه، ويبدو أنها أرادت ألا تزيد من هذا الإحراج، فسألتني وهي تشير إلى الكتاب الذي أحضرته معي:

- هل انتهيت بهذه السرعة من الرواية؟

كانت تقصد رواية "البئر الأولى" التي أعطتني إياها منذ ثلاثة أيام. بدأت أتكلم معها باهتمام، وأنا أستعين بصفحات من الرواية.

في سيرته الذاتية التي صدرت بعنوان "البئر الأولى" يتحدث جبرا إبراهيم جبرا عن طفولته في بيت لحم والقدس، وفيها يظهر داهش بك، وما يجمع الاثنين -جبرا وداهش- الكثير، فكلاهما ينتمي للطائفة السريانية ولنفس الحي ولنفس الطبقة الفقيرة.

يقول جبرا في سيرته في صفحة رقم :86

لا يمر فصل من فصول السنة إلا وتزور البلدة جماعات تجتذب الناس في حلقات كبيرة حولها، وقد تستمر ألعابها ساعة أو ساعتين، وبخاصة إذا كانت من فرق لاعبي السيمياء أيدي في الهواء فاضية بوش.. يقول الساحر، وإذا هي فجأة تخرج بيضا، أو كرات ملونة، أو أرانب، يضع منديلا في فمه، وبعدها بقليل يبرز من بين شفيته طرفا من خيط، يمسك به زميله ويجره، وإذا هو يجر من فم الساحر مناديل، وأعلاما، وحدائد، وشفرات صدئة، ويمتد الخيط ويمتد، والأشياء العالقة به، الخارجة من جوف الساحر لا تنتهي، وبعدها يبلع سيوفا، وينفث لهبا من النار.

ويضيف جبرا:

وكان في تلك الأيام أن سمعت الكبار يتحدثون عن سليم العشي (صديق أخي الأكبر مراد حينئذ)، الذي يعمل مؤجرا ومصلحا للدراجات في دكان صغير في ساحة باب الدير، وقد جعلوا يسمونه بسليم الساحر، بسبب الحيل المدهشة التي كان يقوم بها في السهرات لإمتاع شيوخ البلدة، وقد رأيته فتى قصير القامة، له وجه ضامر لا يبتسم، تشع منه عينان واسعتان مذهلتان.

ويضع جبرا حاشية في الكتاب تقول:

سرعان ما تحول هذا الشاب، الذي علّم نفسه بنفسه، إلى أسطورة بما يقوم به من خوارق التنويم المغناطيسي واستحضار الأرواح بواسطة أخته، وذلك بعد رحيله إلى القدس، ثم إلى بيروت، حيث دعا نفسه داهش بك ثم الدكتور داهش وأسس طريقة عرفت بالداهشية.

بعد أن انتهيت، سألتها:

- هل كنت تتعمدين أن تعطيني هذه الرواية بالتحديد؟

هزت رأسها بالإيجاب وهي ترفع فنجان القهوة إلى شفتيها:

- أحاول أن أساعدك.

قلت لها وأنا أشعر بتوتر لا أعرف سببه:

- تنفقون كل هذه الدولارات لأكتب لكم رواية عن ساحر؟

تركت فاطمة الفنجان من يدها، ونظرت لي بعينيها الجميلتين وسألت بهدوء:

- هل تراه هكذا؟

أجبتها وقد زادت نبرة التوتر في صوتي:

- أو كيميائيا، فوسط مجتمع جاهل كالذي تربى فيه سليم العشي، يُعتبر الكيميائي ساحرًا خارقًا، في يوميات الجبرتي نص شهير يصف فيه كيف كان الفرنسيون يستدعون المصريين لرؤية ما يُجرون من تجارب كيميائية لا عهد لهم بها، فيعجبون وينبهرون.

وبدأت أقرأ لها النص حيث يقول الجبرتي في وصفه لمعمل الكيمياء الذي أقاموه:

ومن أغرب ما رأيته في ذلك المكان؛ أن بعض المتقيدين لذلك أخذ زجاجة من الزجاجات الموضوع فيها بعض المياه المستخرجة، فصبّ منها شيئًا في كأس، ثم صبّ عليها شيئًا من زجاجة أخرى، فعلا الماء، وصعد منه دخان ملون، حتى انقطع وجف ما في الكأس، وصار حجرًا أصفر، فقلبه على البرجات حجرًا يابسًا، أخذناه بأيدينا ونظرناه، ثم فعل ذلك بمياه أخرى، فجمدت حجرًا أزرق، وبأخرى فجمدت حجرًا ياقوتيًا، وأخذ مرة شيئًا قليلا جدًا من غبار أبيض، ووضعه على السندال، وضربه بالمطرقة بلطف، فخرج له صوت هائل، انزعجنا منه، فضحكوا منا.

ومن المعروف أن السحر لون من التخيل، والساحر أثناءه يظل يرى الشيء على حقيقته، لذلك فإنه لا يخاف، بينما المسحورون يتخيلون أن الشيء قد تغيرت طبيعته.

استمعت لي فاطمة باهتمام، ثم قالت:

- إذن، سيكون عليك أن تتقصّى هذه الحقيقة، هل هو ساحر أم كيميائي؟

* * *

سهرتُ تلك الليلة أيضًا أراجع بعض الملاحظات التي دوّنتها عن مؤلفات الدكتور داهش مما طالعت بعضًا منها في بيته.

ما زالت قصة توفيق الحكيم "الدنيا رواية" تسيطر على ذهني، لكن هل كان الحكيم هو أول من استخدم هذا التعبير أو هذه الفلسفة؟

كانت الإجابة شيئًا لم يخطر ببالي قط.

في عام 1954 -أي قبل اثنتي عشرة سنة- من نشر توفيق الحكيم لقصته، كتب المفكر "الإسلامي" أحمد أمين مقالا بعنوان "الدنيا رواية" جاء فيه:

الدنيا رواية.. نعم.. إنها رواية، لكن مسرحها كبير جدًا، هو وجه الأرض كله، ولسعة المسرح أمكن أن نمثل عليه عدة روايات في وقت واحد، ففي جانب منه قد تمثل كوميديا "ملهاة"، وفي جانب اخر قد تمثل تراجيديا "مأساة"، والذي يجعلنا نعتقد أن الدنيا رواية هو الشبه التام بين ما يجري في الدنيا، وما يجري في الروايات، فنحن نشهد في الرواية التمثيلية في ساعتين أو ثلاث، ثم ننفعل لها انفعالًا قويًا أو ضعيفًا، ضاحكًا أو باكيًا، ثم ننصرف وننسى كل شيء، وكأنه لم يكن. والفيلسوف الذي يؤمن بأن الدنيا رواية لا ينفع كثيرًا، ولا يلتذ كثيرًا، ولا يتألم كثيرًا؛ لأنه يؤمن أن كل ما في الدنيا مسائل اعتبارية، كالذي في الروايات تمامًا، فالملك على مسرح الرواية التمثيلية ليس ملكًا حقيقيًا، ولا العامل الحقير في الرواية يبقى عاملًا حقيرًا، بل متى انتهت الرواية تغير كل شيء، والناس في الحياة شأنهم شأن الممثلين... قد ينجح الممثل، فيمثل دوره أحسنَ تمثيل فيصفق له الناس، ويشتهر وينال الحظوة، وقد يفشل في التمثيل فيشمئز منه الناس ويحتقرونه ويهزأون به.

كذلك الحياة الواقعية... من الناس من يكون عالمًا ناجحًا، أو تاجرًا ناجحًا، أو أديبًا ناجحًا، فيصفق له الناس ويحظى عندهم، وقد يكون فاشلًا، فيهزأ به الناس ويسخرون منه، وينصرفون عنه، ثم ينسى الناجح والفاشل، سواء في الرواية أو في الدنيا.

نُشر هذا المقال فيما بعد في كتابه "فيض الخاطر".

أي عالم هذا الذي دخلت إليه؟

* * *

وعدت إلى ملاحظاتي عن مؤلفات الدكتور داهش.

لفت انتباهي أنه نشر كتاب "نشيد الإنشاد" في العام 1943، وكنت قد قرأت من قبل كتاب توفيق الحكيم نشيد الإنشاد، فشرعت أبحث عن معلومات عنه على الإنترنت. لو كنت في مصر كنت فقط سأمد يدي إلى مكتبتي لإخراج كتاب الحكيم الذي قرأت كل أعماله منذ مراهقتي. وجدت أن كتاب توفيق الحكيم نُشر عام 1940.

وكتب في مقدمته:

هذا نشيد الملك النبي سليمان، وضع قبل الميلاد بنحو ألف عام، ولعله أجمل صوت خرج من قلب الإنسان لتحية الحب والربيع منذ أقدم الأزمان.

سحر هذا النشيد أكثر الشعراء والأدباء وأهل الفنون على توالي العصور، ولعل من فُتن به في العهود الحديثة "رينان" ثم "أندريه جيد"، فوضعه كل منهما في صيغة جديدة. ولقد أردت أن

أطلع على ما صنعا فلم تهيأ لي ظروف اليوم القاسية أسباب العثور على هذين النصين الحديثين. فجعلت كل اعتمادي في وضع هذه الصيغة على التوراة. ثم يكتب النشيد ومما جاء فيه:

أنعشوني بالزبيب وغذوني بالتفاح

فإني من الحب مريضة

آه يا حبيبي، ضع شمالك تحت رأسي

ودع يمينك تعانقني

بينما يكتب الدكتور داهش في كتابه "نشيد الإنشاد" الذي نشر عام :1943

يا نساء مدينتي

طيّبوا قلبي بالزبيب

وأنعشوا روحي

بالتفاح الذهبي الأحمر

فإني من عمق حبي مريضة

آه يا سليمان

أحط جسدي بشمالك

وداعبني بيمينك

* * *

شرعت أبحث عن المزيد بعد أن خطرت لي فكرة، فقد ترجمت معظم كتب الدكتور داهش إلى الفرنسية، فهل يمكن أن يكون توفيق الحكيم قد قرأ بعضها وتأثر بها؟

ثم لاحظت أن توفيق الحكيم عاد إلى نفس موضوع قصة الحب بين سليمان وبلقيس، وكتب مسرحيته "سليمان الحكيم" عام .1943

ونشر الدكتور داهش في نفس العام كتابه "عشتروت وأدونيس" وجاء في مقدمته:

كثيرون هم الأدباء والشعراء الذين استهوتهم أسطورة عشتروت وأدونيس اليونانية، فافتنّوا في صياغتها. وقد جاراهم الدكتور داهش، فصاغها بأسلوبه صياغةً جديدة. تميّزت هذه

الصياغة بغِنى الصور والتشابيه، وحيوية الحوار، ووفرة الأناشيد والمراثي قبل مصرع أدونيس وبعده، وإشراك الطبيعة والآلهة في وقائع الأسطورة، حتى جاءت نابضة بالحياة، إذ يصور لنا المؤلّف أن ما يُدعى أسطورة، ويظنه الناس خرافة، ليس إلاّ حقيقة اتّشحت بالخيال. طبع الكتاب في اللغة الفرنسية.

وفي عام 1937، يظهر أول إعلان في مجلة الهلال المصرية عن كتاب "القصر المسحور" وجاء فيه:

الدكتور طه حسين بك والأستاذ توفيق الحكيم

دار النشر الحديث في 211 صفحة

في هذه الطبعة هناك نص لحوار جريء للغاية يدور بين توفيق الحكيم وشهر زاد، يختفي هذا الحوار فيما بعد في بعض الطبعات التالية من الكتاب دون اعتراض من الحكيم نفسه، هذا النص المحذوف جاء فيه:

شهر زاد: ثق أن الملوك بل الآلهة لايستطيعون دائمًا أن يصنعوا كل ما يشاؤون!

توفيق: وما قيمة هذا الإله الذي لا يستطيع أن يصنع كل ما يشاء!

شهر زاد: وهل يتصور كون منظم يدبره إله يستطيع أن يعبث بكل ما يشاء وقتما يشاء؟

ثرى، ما الذي دفع بتوفيق الحكيم –دون مناسبة في النص– أن يكتب هذه الكلمات التي تعبر عن (انقلابٍ ما) في نفس الحكيم؟

ثم رجعت إلى تلك الزيارة التي قام بها الدكتور داهش إلى مصر عام 1981، وسماها بالرحلة السابعة عشرة.

من الملاحظ أن مريدي الدكتور داهش، هم دائمًا صفوة المفكرين والأدباء والشعراء والصحفيين والسياسيين؟ فمن كان يُقابل في مصر؟ هل كان نجيب محفوظ وتوفيق الحكيم من قراء أدبه؟ هل قابلاه في إحدى زياراته إلى مصر؟

أسئلة! أسئلة! من يملك الإجابة عنها؟

لنعود إلى موضوعنا، فنحن لا نعرف ماذا فعل الدكتور داهش، ولا من قابل في مصر، لكن الملاحظ أن توفيق الحكيم قد فاجأ الجميع بمفاجأة مدوية -بعد تاريخ زيارة الدكتور داهش- قلبت تاريخه الطويل كله رأسًا على عقب، وكان ذاك حين نشر الحكيم على مدى أربعة أسابيع ابتداء من 1 مارس 1983، سلسلة من المقالات بجريدة الأهرام بعنوان "حديث مع الله".

أثار المقال الأول ضجة كبيرة، وعرضه للانتقادات والهجوم الشديد من رجال الدين وعلى رأسهم الشيخ محمد متولي الشعراوي، ما دفع الحكيم إلى تغيير عنوان المقالة الثانية ليصبح "حديث إلى الله" ثم "حديث مع نفسي".

وفي نفس العام 1983، ضم الأربع مقالات في كتاب سمّاه "الأحاديث الأربعة والقضايا الدينية التي أثارتها"وكتب في مقدمته:

قد رأيت عند إعادة الطبع في هذا الكتاب استبعاد كل الكلمات والأسطر التي كتبت تخيلا منسوبا إلى الله، مراعاة للحساسية الدينية التي لا أريد إطلاقا أن تسبب إزعاجا لأي مؤمن.

وقد جاء في مقالات الحكيم؛ أنه طلب السماح من الله -سبحانه وتعالى- أن يقيم حوارًا معه، وهو ما اعتبره كبار الشيوخ والمفكرين تجاوزا وخروجا على تعاليم الدين الإسلامي، وتعديا على الذات الإلهية. ومما قاله الحكيم في مقالاته مخاطبًا الله (حُذفت هذه المقدمة عند نشر الكتاب):

"ومن أكون أنا حتى تحدثني أنت بالوحي؟ لن يقوم إذن بيننا حوار إلا إذا سمحت لي أنت بفضلك وكرمك أن أقيم أنا الحوار بيننا تخيلا وتأليفا، وأنت السميع ولست أنت المجيب، بل أنا في هذا الحوار المجيب عنك افتراضًا، وإن كان مجرد حديثي معك سيغضب بعض المتزمتين لاجترائي في زعمهم على مقام الله سبحانه وتعالى، وخصوصا أن حديثي معك سيكون بغير كلفة، لا أصطنع فيه الأسلوب الرفيع اللائق بارتفاعك، ولا بالوصف العظيم المناسب لعظمتك، فأنا سأخاطبك مخاطبة الحبيب لحبيبه.. الحب الذي ليس كمثله شيء ".

وفي إطار هذا الحديث الجريء مع الله يقول:

"وهل هناك حساب على النية؟ طبعا.. ولكنك غفور.. ولماذا الحساب إذن؟ لأنه القانون.. أساس ونظام.. وأنت خالق الكون.. أي فوق القانون.. لا.. بل أنت خالق القانون الذي يتم به تركيب الكون.. فأنت لست فوق القانون (يقصد الله تعالى).. ولكنك الحريص عليه.. لأنه من خلقك.. ووليد حكمتك.. فعلا.. حرصك يا ربي على قانونك هو إرادتك العليا".

ويقول الحكيم أيضا:

"وفجأة حدث العجب. حدث ما كاد يجعلني يُغشى عليّ دهشة، فقد سمعت ردًا من الله أو خيل إليّ ذلك: وهل إذا درست الحساب بنجاح، والتحقت بمدارس العلوم كنت ستراني؟

هذا ما سمعته، وهذا يكفي ليجعلني أعتقد أن الله قد سمح أخيرا أن يدخل معي في حديث".

وعن نسبية الأديان، قال الحكيم: "إن الأديان نسبية تختص بها أرض دون أرض، لأن البشرية نفسها نسبية، وكأنك يا ربي تلمح إلى ما سوف يكتشفه العلماء بعد قرون في شخص أينشتاين".

ونقرأ ما كتب الحكيم -في النص المحذوف من الكتاب- فنرى أنه قد جعله حوارًا بين المخلوق والخالق بالطريقة التمثيلية المعروفة، ومنه على سبيل المثال:

"الله: وبعد.. يا هذا؟ أطلبت الحديث معي لتكلمني فيما أنا أعلم به منك؟

المخلوق: أو كان من الممكن أن أحادثك فيما لا علم لك به؟ وأنت يا ربي العظيم العليم بكل شيء.

الله: هل عندك شيء آخر تقوله لي؟

المخلوق: سئمتَ حديثي يا ربي؟

الله: أنا لا أعرف السأم.. وأنا السميع دائم السمع للغط مخلوقاتي الكثيرة من أبعد المجرات إلى أصغر الحشرات.

الله: تكلم.

المخلوق: إذا سمحت فلنواصل بمشيئتك الحديث الثلاثاء القادم"

وفتحت هذه المقالات النار على توفيق الحكيم، فانهال عليه الكتّاب الإسلاميون والدعاة بالمقالات التي تتهمه بالضلال والكفر، فكتب عنه عمر التلمساني مقالة بجريدة "النور" بعنوان: "هكذا تختم حياتك أيها الحكيم".

أما أشد المهاجمين له في هذه المعركة، فقد كان الشيخ محمد متولي الشعراوي، الذي أقيمت له ندوة في مجلة "اللواء الإسلامي" حول مقالات الحكيم، وتساءل الشعراوي قائلا: "الأستاذ توفيق الحكيم لم يقل لنا كيف كلمه الله هكذا مواجهة أم أرسل إليه ملكا أم ماذا حدث؟".

وواصل الشعراوي هجومه قائلا: "لقد أباح الحكيم لنفسه ما لم يكن مباحا لمحمد صلى الله عليه وسلم".

وقد انتقد الشعراوي رأي الحكيم في نسبية الأديان قائلا: "لقد قال الحكيم إن الملحدين من العلماء أمثال أينشتاين سيدخلون الجنة، رغم أنهم لم ينطقوا شهادة أن لا إله إلا الله، وأن هؤلاء أتوا بما لم يأتِ به الرسل، وهذا مساس بصفة العدل عند الله، فالأستاذ الحكيم يريد أن يدخل هؤلاء الجنة بلا إيمان أو حساب وكأنما غفر لهم ما تقدم من ذنبهم وما تأخر، بدعوى أنهم أضافوا إلى الإنسانية أشياء جليلة".

واشتدت المعركة وتدخل للدفاع عن الحكيم كل من الكاتب يوسف إدريس والدكتور زكي نجيب محمود.

وتوقفت مقالات توفيق الحكيم.

* * *

كأن هناك شيئًا ما بداخل رأسي يُحركه في اتجاهات لم أكن أفكر فيها، أشعر كما لو أن هناك شيئًا، شخصًا يعيش بداخل رأسي ويسيطر على أفكاري، عندما رأيت اسمه أمامي، قفزت الفكرة فورًا إلى رأسي.

يوسف إدريس.

وقصته "بيت من لحم" التي نُشرت عام 1971 (لا تنسوا أن الدكتور داهش كان في مصر هذا العام).

لاحظوا العنوان، وفكروا في ذكاء يوسف إدريس ذي اللؤم الفلاحي.

"بيت من لحم"، "بيت... لحم".

لقد وُلد الدكتور داهش في بيت لحم!

وما إن قرأت الصفحة الأولى من القصة، حتى طالعتني الصدمة:

في الظلام أيضًا تعمى العيون.

الأرملة وبناتها الثلاث. والبيت حجرة والبداية صمت.

الأرملة طويلة بيضاء ممشوقة في الخامسة والثلاثين. بناتها أيضًا طويلات فائرات، لايخلعن الثوب الكاسي الأسود بحداد أو بغير حداد، صغراهن في السادسة عشرة وكبراهن في العشرين.

أنت تصف ماري حداد وبناتها الثلاث، يا يوسف إدريس!

هذا الوصف ينطبق على ملامحهن، كما تظهر في صورهن.

لماذا أظهرتهن في هذه القصة يمارسن الفجور مع الرجل الأعمى؟

وتذكرت ما ذكرته زينا حداد من تشنيع الصحف اللبنانية على الدكتور داهش، واتهامها له بأنه أوقع البنات الثلاث في حبه.

لماذا هاجم يوسف إدريس عائلة ماري حداد، والدكتور داهش في هذه القصة التي لم ينتبه أحد إلى سبب "غرابة" فكرتها وخروجها عن المألوف المجتمعي؟

وتذكرت أني قرأت أن يوسف إدريس كان عنده عشق غير طبيعي للأضواء، كان يتعامل كأنه نجم سينمائي، فهل غار –معروف عنه الغيرة، وله سابقة مشهورة مع نجيب محفوظ بعد فوزه بنوبل– من شهرة الدكتور داهش التي تخطت لبنان إلى دول كثيرة منها مصر؟

هل لاحظ –أثناء زيارات الدكتور داهش لمصر– تهافت صحفيين أو مسئولين، كان إدريس يعتبر أنه هو الأولى باهتمامهم وتهافتهم، فأراد أن ينتقم من الدكتور داهش في هذه القصة الرمزية؟ هل كان يوسف إدريس يقابل الدكتور داهش في مصر ثم انقلب عليه لسبب ما؟

هل...؟ وهل...؟

متى تكف الأسئلة!

سأصاب بالجنون لو استمريت بالبحث في هذا الموضوع.

فلأكف!

❞ * *

طلبت من فاطمة عندما اتصلت بها في صباح اليوم التالي، أن تطلب من الرجل الغامض أن يسمح لي بالاطلاع على كتب الرحلات الداهشية التي وثّق فيها الدكتور داهش رحلاته إلى مصر. لكن فاطمة أخبرتني بنفس ما قاله لي الرجل الغامض، من أنه هو من يملك القرار ورفضه قاطع.

سألتني إذا كنت قد غيرت رأيي وأريد الذهاب إلى هناك اليوم، لكني أخبرتها أني أحتاج إلى ترتيب أفكاري اليوم ولنذهب في اليوم التالي.

كان الجو مشمسًا بالخارج، فخرجت أتمشّى، وكنت أعرف أن الفندق يقع على بُعد شارع واحد من كورنيش بيروت. كان الكورنيش في هذا الوقت من النهار يكاد يكون خاليًا إلا من بعض كبار السن، يمارسون رياضة المشي، وبعض الشابات ممن يُمارسن الجري.

جلست أتأمل البحر، فهو نفس البحر الذي تُطل عليه مدينتي الساحلية.

إذا كان الدكتور داهش، كان وسط مريديه في بيروت في عام 1947، فمن الذي أعدم في أذربيجان؟

ماذا حدث بعد أن تناقلت الأخبار في لبنان –وبالتأكيد في مصر– خبر موته؟

فلتكف! ألم تعد بذلك ليلة أمس؟

* * *

في اليوم التالي، طلبت من الرجل الغامض أن أشاهد تلك الصور الفوتوغرافية المعلقة على جدار ذلك الممر الطولي، وطلبت منه أن يُعرفني على الأشخاص الموجودين في الصور.

رأيت صورًا للدكتور داهش في مراحل عمرية مختلفة، منذ شبابه حتى كبره (كل الصور بروفايل جانبي ينظر فيها إلى الجهة اليسرى).

لماذا؟ لماذا؟

عرفت من الصور زينا وماجدا وماري.

كما عرفت أشخاصًا آخرين كانوا من أقرب مريدي الدكتور داهش.

ثم وصلت إلى صورة تجمع الدكتور داهش شابًا بفتاة تجلس أمامه، هو –كالعادة لا ينظر للكاميرا– بينما الفتاة تنظر مباشرة إلى الكاميرا. الفتاة متوسطة الجمال، لها شعر أسود غزير، وحاجبان ثقيلان، عيناها غريبتان سوداوان، وقفت طويلًا أقارن وجهها بوجه الدكتور داهش ثم التفتُّ إلى الرجل الغامض:

- هل هذه قريبته؟

- أخته.

هتفت بلهفة:

- أنطوانيت؟

- هل تعرفها؟

أخذت أحكي له عن الإعلانات القديمة التي قرأتها، ثم أنهيت كلامي قائلًا بلهجة انتصار:

- كنت أشك أن مساعدته أنطوانيت هي نفسها أخته.

تعلقت عيناي بالصورة، هناك شيء ما غريب! كانت عيناي تتفحصان أنطوانيت بينما سألت:

- ماذا تعرف عنها يا دكتور؟

أجابني بصوته العميق، القوي النبرات، على الرغم من كبر سنه:

- شقيقته الصغرى ورفيقته في الميتم في عام 1921، أنطوانيت أنجبت ابنة وحيدة تدعى ليلي، زوجة الشاعر موسى المعلوف من زحلة، وهي إحدى أربع شقيقات، لم يكن للدكتور داهش سواهن، أنطوانيت توفيت عن 84 عاما في عام 1996، بينما شقيقاته الراحلات، جميلة وإليزابث ووديعة، فانتقلن إلى فلسطين، حيث تزوجن وأنجبن أولادا.

سألته بلهفة:

- ماذا عن ليلى ابنتها، هل يمكن أن أقابلها؟

قال وهو يتجه إلى أقرب كرسي ليجلس:

- لا أحد يعرف عنها شيئًا منذ وفاة أنطوانيت.

شعرت بالأسف لانقطاع هذا الخيط المهم، ثم عدت أتأمل الصورة، أشعر أن هناك شيئًا ما غريبًا فيها ولكني لا أستطيع تحديده.

سألته:

- هل كتب الدكتور داهش سيرة حياته في كتاب؟

- لا.

- هل كتب عن أخواته الأخريات في أي كتاب؟

- لم يذكرهن بحرف واحد.

تعجبت من هذا الرجل الذي كتب عشرات الكتب، ولم يكتب سطرًا واحدًا عن سيرة حياته أو عن أخواته، حتى أنطوانيت التي كانت مساعدته كساحر؟

هل كان على علاقة جيدة مع أخواته؟ هذا أمر غير مُقنع لي. فهمت أن داهش كان يكتب بطريقة رمزية في بعض كتاباته فترى في أي كتاب جاء على ذكر أخواته رمزًا؟

الصورة! أنطوانيت! ماذا في هذه الصورة؟

كانت الميزة التي أجدها في مضيفي الغامض، أنه لا يتكلم إلا إذا وجهت أنا إليه الكلام، هكذا كنت أشعر بنفسي وحيدًا، منفردًا بأفكاري. تحركت إلى أرفف الكتب وشرعت أقلّب فيها.

وجدت أمامي كتاب "مراثي الدكتور داهش" وعلى الغلاف صورته بعد إعدامه، تأملت الصورة بتمعن، إنه الدكتور داهش فعلًا يستلقي ميتًا.

وقرأت على الغلاف الخلفي:

هذه مقالات نُشرت في الصحافة كمراثٍ للدكتور داهش عند نشر خبر إعدامه في أذربيجان، من أبرزها مقالات لمطران صور وصيدا وتوابعها بولس الخوري والشاعر حليم دموس والنقيب رياض طه، والمحامي وجدي الملاط، والمرشد العام للإخوان المسلمين حسن البنا.

وقرأت ما كتبه حسن البنا عن الدكتور داهش، لكن طلب مني مضيفي الغامض ألا أذكره في روايتي، وكل ما أستطيع قوله في هذا الشأن؛ إن كلمات مرشد الإخوان المسلمين قد أدارت رأسي.

حتى حسن البنا كان يعرف الدكتور داهش ويرثيه أيضًا بكلمات مؤثرة؟

تُرى ما العلاقة بينهما؟

***

تركت الكتاب، وأمسكت بكتاب آخر عنوانه غريب، كتاب "يدي المزلزلة أو كيف سقطت سقطة

الموت المدمرة".

وقرأت على الغلاف الخلفي:

هل بلغك أن مؤلفا وقف كتابا كاملا على يده وآلامها؟

موضوع طريف لعل الدكتور داهش أول من طرقه! هذا الكتاب مجموعة قطع وجدانية، أكثرها مسجّع، وصف فيها المؤلف، على مدى سنوات ثلاث، آلام يده الناشئة عن سقطته المروعة في ربيع 1976. تتجلى في الكتاب مقدرة الدكتور داهش الفائقة على تتبع معاني الألم حتى الغوص على أدق المشاعر. ولا يلبث أن يصعد الابتهالات إلى الله، ملاذه الأخير، عله تعالى يرحمه ويشفي يده.

***

عدت ألتفت إلى الصورة وأتأمل أنطوانيت عن قرب. وجهها يشبه إلى حد غريب وجه أخيها، ترتدي فستانًا أبيض اللون على عكس أخيها الذي يحب الألوان الداكنة ويرتدي بذلة سوداء.

ثرى كيف كانت حياتهما في الميتم؟ وهل كان هذا سببًا في أنهما كانا قريبين من بعضهما أكثر من باقي أخواته؟

التفتُّ إلى الغامض أسأله:

- هل هناك صورة لأخواته الأخريات؟

- لا.

الشاب الصغير الذي لم يتجاوز العشرين عامًا، يخرج من الميتم، ويعمل في إصلاح وتأجير الدراجات، فجأة يبدأ في عمل بعض الحركات "السحرية" ويشتهر ويذاع صيته (متى تعلم أمور السحر؟ ومن علمه؟).

متى أصبحت مساعدته؟

وتذكرت أن الإعلان المصري كان يصفها بأنها وسيطته الروحية.

يقولون إن الظواهر الواسطية لا تخضع لسلطان أي إنسان، بل إن الوسيط نفسه لا يعلم كيف تحدث ولا متى، أو لماذا تحدث أحيانًا، ولا تحدث أحيانًا أخرى، وليس لظهور الوساطة سن معينة، فقد تظهر مبكرة وقد تظهر متأخرة، وقد تتطور مع الوقت وقد تنمو وقد تضعف، وقد يفقد الوسيط موهبته الطبيعية لسبب لا يعلمه، وقد تعود إليه هذه الموهبة بعد وقت طويل أو قصير وقد لا تعود إليه أبدًا.

يبدو أن سليم العشي قد اشتهر كثيرًا في لبنان كساحر فذ، ويبدو أن شهرته هذه وصلت إلى مصر (لا بد أن نجاحه كان مدويًا ولافتًا للنظر بشدة حتى يصل صيته في تلك الأيام التي كانت فيها الأخبار تنتقل بصعوبة وبيطء بين الأقطار حتى وصلت إلى مصر).

في عام 1931، يقضي سليم العشي، وشهرته في ذلك الوقت –كما يقول الإعلان– الدكتور داهش بك، شهورًا في مصر مع أخته أنطوانيت التي كانت تعمل وسيطة روحية له. كان –على حسب الإعلان– منومًا مغناطيسيًا مشهورًا.

بعد أحد عشر عامًا من هذا التاريخ، يُعلن الدكتور داهش عن عقيدة الداهشية في بيروت. كيف تحول الساحر الشاب إلى نبي؟ ومتى تحول السحر إلى خوارق ومعجزات؟ ماذا حدث للدكتور داهش من تحولات في هذه السنوات؟

أين اختفت أنطوانيت؟ ولماذا لا يأتي لها ذكر في الداهشية؟ هل آمنت به أم كانت ممن كذبوه؟ حتى في كل المحن التي تعرض لها، لم يكن لها أي ذكر. أين كانت؟ ولمَ اختفت من حياته بهذا الشكل؟ هل هذا الاختفاء كان بإرادتها أم إن سليم أخاها هو من أخرجها من حياته حتى ينسى الجميع أنه كان ساحرًا لسنوات قبل أن تظهر خوارقه؟

عدت أسأل المضيف الغامض عن أنطوانيت وأخواتها، لكنه قال باختصار "لا أعرف عنهن شيئًا".

سألته:

- هل هناك حجرات أخرى لم أرها؟

- أنت لم تر شيئًا بعد!

عدت أتأمل الصور مرة أخرى، داهمني شعور مفاجئ بالرغبة في الخروج من هذا البيت. لم أعد أرغب في استكمال يومي هنا، ونظرت في ساعتي، تبقت عندي ساعة حتى تحضر فاطمة.

وخطرت في بالي فكرة، فرصة أن أقابل أصحاب المحلات المجاورة قبل أن تأتي فاطمة. لماذا رفضت فاطمة أن أقابلهم؟

قلت لمضيفي الغامض إني سأكتفي بزيارة اليوم، لكن، ما إن استدرت لأتحرك حتى انتبهت إلى شيء ما، الصورة!

عدت ألتفت إلى أنطوانيت، نظرت لها مقرّبًا وجهي من الصورة. العُقد الذي ترتديه في عنقها غريب الشكل.

عقد رفيع من الخرز على هيئة أنشوطة حبل مشنقة!

* * *

قبل أن يفتح لي مضيفي الغامض الباب الحديدي الضخم، قال فجأة:

- هل ستحضر غدًا؟

قلت وأنا أتعجل الذهاب:

- بعد غد.

فتح الباب وخرجت منه إلى الحرية بينما يلاحقني صوته:

- ستقابل شخصًا مهمًا في المرة المقبلة.

التفتُّ له باهتمام، لكنه كان قد أغلق الباب.

وقفت للحظات أفكر من سيكون هذا الشخص الذي سأقابله؟ ثم قلت لنفسي: لماذا أرهق نفسي بالأسئلة التي لن تكون لها إجابات سهلة. كنت قد قررت أن أمشي إلى نهاية الشارع –كأني ماض في طريقي– حتى إذا كان مضيفي الغامض يراقبني من خلف إحدى النوافذ، فإنه سيطمئن إلى ذهابي.

ثم اختفى عن عينيه عند انحناءة الشارع، سأنتظر ربع ساعة ثم أعود إلى الشارع مرة أخرى.

كان الدكان الأول هو دكان بقالة، استغربت للديكور القديم والأرفف الخشبية العتيقة، الرجل يبدو قد تجاوز الستين من عمره، ألقيت عليه السلام، وقلت له إنني صحفي أقوم بتحقيق حول الدكتور داهش، نظر لي الرجل باهتمام وقال:

- تبدو من لهجتك مصريًا، لماذا تهتم بهذا الموضوع؟

شرحت له –كاذبًا– أني أعمل في فرع صحيفة دولية في بيروت، قال الرجل –الذي لن أذكر اسمه هنا– وهو يختلس نظرات متوترة من منزل داهش:

- إن داهش لم يكن دجالا ولا مشعوذا، إنما كانت له قدرات خاصة، لا أملك تفسيرها حقيقة، ربما كان يسيطر على من حوله مهما كانت نوعيتهم، بمجرد تحديقه بعيونهم. وكان لداهش شأن كبير زمن الرئيس بشارة.

قال إنه لم يعاصر الدكتور داهش بنفسه، لكن سمع عنه حكايات كثيرة من والده الذي توفي. رفض البقال الخوض في تفاصيل أخرى، وأنا كنت متعجلًا أن أقابل أكبر عدد من الجيران قبل أن تحضر فاطمة، فتركته إلى دكان آخر.

كان دكان كواء ملابس يجلس فيه رجل عجوز قد تجاوز السبعين من العمر (لماذا الجميع هنا من كبار السن؟)، كررت نفس الكلام، فحكى لي أنه في 1965، وكان لا يزال طفلًا، حضر الدكتور داهش إلى الدكان، حيث كان أبوه يقوم بكواء بذلات الدكتور داهش، في ذلك اليوم

حوّل داهش ورقة بيضاء، أقفل الطفل يده عليها بإحكام إلى ليرة لبنانية.

وقال: "رأيتها وقد أصبحت ليرة لبنانية أمامي بالفعل، لكني لا أعرف كيف حدث ذلك، ربما كان سحرا".

سألته:

- لماذا لم تصبح من أتباعه؟

- لا أدري، لم يكن ذلك في البال، لكني لا أعاند ما رأيت.

- ألم يكن محتالا برأيك؟

- كل شيء جائز. لكنه لم يكن يبدو لي من هذه الطينة. لا أدري، أعتقد أنه كان يريد أن يقول شيئا من هذا كله.

كان ميعاد وصول فاطمة قد اقترب، لذلك قررت الاكتفاء بذلك، أثناء خروجي من الدكان، لاحظت أن امرأة عجوزًا بيضاء الشعر تقف في واجهة دكان يبيع فاكهة، كانت تشير لي بطرف يدها وبخلسة، أن أحضر إليها.

تحركت إليها باهتمام، فدخلت إلى الدكان، ودخلت خلفها، فجأة سألتني:

- هل كنت تعرف "كارلا صايغ"؟

بالطبع أنا لا أعرف أحدًا في لبنان إلا فاطمة، أجبتها بالنفي وقلت لها، يبدو أنها كانت تظنني شخصًا آخر، لكنها قالت:

- كانت "كارلا" تحضر مع نفس الفتاة التي تأتي أنت معها منذ عام مضى.

نظرت لها باهتمام وأنا أحاول أن أفهم ما تريد أن تقوله، فجأة قالت لي المرأة بصوت حاسم:

- اهرب قبل فوات الأوان!

* * *

الفصل الرابع

نهر الدموع

جـــورج خبـصا

قال الدكتور داهش: ليس من يكتب للّهو كمن يكتب للحقيقة.

* * *

لا يمكن أن أنسى تلك السيدة، بكل ما كانت عليه من مثالية وخلق رفيع، وجدت نفسها، هي وأسرتها، في أحد أيام عام 1942، في حضرة رجل تبين لها بالدليل القاطع أنه رجل الحقيقة الخالدة؛ رجل الهدى والمحبة والرحمة والإيمان بالله وبالروح في عالم غارق في المادية والإلحاد والفساد؛ رجل يعد من أبرز ممثلي الأدب الإنساني في القرن العشرين، ويأتي المعجزات بفضل من الله من أجل إثبات حقيقة وجوده وعظيم قدرته، ووحدة أنبيائه ورسالاته، ويناهض التعصب بكل أشكاله، ويهزأ بالأمجاد والألقاب، ويعرض عن متاع الدنيا وغرورها، ويؤمن بعدالة الله ويسلّم بمشيئته!

وقد رأت فيه بالفعل رجلًا من رجال الله الذين تتزلزل مملكة إبليس تحت وقع أقدامهم، وتهتز أركانها من ترددات صرخاتهم الروحية!

كان الدكتور داهش ذلك الرجل!

وكانت بيروت والقاهرة ومدن فلسطين قد تناقلت أخبار معجزاته، في ثلاثينيات القرن الماضي، وكتبت الصحافة المصرية والفلسطينية الكثير عنه.

لم تصدق في البدء ما نقل لها عنه، إلى أن جاءت إليه بنفسها، مصطحبة زوجها الأديب جورج حداد وبناتهما الثلاث، للتحقق من صحة ما سمعوه من أمره. هناك، لمست الحقيقة لمس اليد، وشاهدت بأم عينها ما سمعته عنه بأذنها، وأيقنت أن ذلك الطالع من وطن أرز الرب، يحمل أمانة سامية عظيمة، وأنه لن يتوانى عن تأديتها مهما عظمت المصاعب والتضحيات!

وأعلنت تأييدها له في دعوته؛ وكذلك فعلت أسرتها. وكانت في كل يوم تستزيد معرفة من فكره وأدبه، وتشهد الكثير من معجزاته. وقد أعلنت وزوجها جورج حداد عن قناعاتهم تلك على رؤوس الأشهاد، الأمر الذي أثار عليهم أقرباءهم وسواهم من وجوه التعصب المقيت في لبنان،

ممن كان لهم نفوذ في السلطة في تلك الحقبة.

في تلك الأيام العصيبة، كان الدكتور داهش عائدا ذات ليلة مع جورج حداد والشاعر حليم دموس، وحدث أن طلب الذهاب إلى منزل جورج حداد. وهناك وجد قوة من الشرطة في انتظاره، فطلب منهم أن يسمحوا له بخمس دقائق للصعود إلى الدور العلوي لوداع شقيقته.

وحدث أنهم لم يدعوه أن يصعد لمقابلة شقيقته، الأخت المجاهدة العظيمة في الروح أنطوانيت لدى وصوله، فنزلت والأخت ماجدا حداد للقائه من فورهما. ما إن حاول الدكتور داهش التخلص من قبضات رجال الأمن الظالمين هؤلاء، حتى قاموا بالاعتداء عليه شر اعتداء بالضرب والشتم، وقد حاول مفوض التحري "عمر طبارة" اغتياله بطلقة مسدس، لكن الأخت ماجدا حداد ارتمت على الدكتور داهش لتمنع الاغتيال، فأسقط في يده، مما اضطره أن يطلق الرصاص في الهواء، الأمر الذي أدى إلى تجمهر المئات في ذلك الليل.

وحدث أن صعد الدكتور داهش الدرج، لكن الكوميسير "محمد علي فياض" أهوى بكعب مسدسه على رأس الدكتور داهش بكل قوته، فأفقده وعيه، فإذا به يتدحرج على درج المنزل.

ثم أخذوه في سيارة وجعلوا يشتمونه ويضربونه طيلة الطريق من بيروت إلى حلب التي بلغوها في التاسعة من صباح اليوم التالي. حيث أدخلوه السجن ليمكث فيه أربعة أيام دون طعام أو شراب. ثم اقتادوه إلى الحدود التركية، حيث تركوه وشأنه، آمرين إياه باجتياز الحدود بعد أن سحبوا منه كل ما يملكه من أوراق ثبوتية.

كنا جميعًا نتعرض لمحن ومصاعب تحملناها صابرين، كما تحمل المسيح آلامه. وإني لأذكر ليلة 31 كانون الثاني/يناير عام 1944 عندما ذهبت مع أخي الداهشي الدكتور فريد أبو سليمان إلى دائرة البوليس العدلي، وذلك حتى يسلم إلى رئيسها السيد إدوار أبي جودة، العريضة التي أملاها علي فريد وما زلت أتذكر نصها:

سبق أن حضرت إلى دائرتكم يوم السبت الواقع في 22 الحالي، وبلغتكم أن والدي عبده أبو سليمان يريد أن يتفق مع امرأة أو أكثر كي يعطينه إفادات كاذبة عن الدكتور داهش، وذلك بقصد تسويد صفحته.

وقد سبق وحصل بيني وبين والدى عدة محاورات عنيفة، بسبب ذهابى إلى ❞ منزل الدكتور داهش. فأضمر والدي في نفسه الشر، وتحيّن الفرصة السانحة للانتقام، وهكذا ذهب إلى دائرتكم وأعطاكم إفادة

لا شك أنها غير صادقة.

ولما بلغني هذا الأمر، اجتمعت بوالدي، وأفهمته مغبة عمله غير القانوني وغير الحقيقي، فأنكر أنه حرض زوجة بولس على الذهاب وإعطاء إفادة ما.

وهذا غير صحيح مثلما تتأكدون.

ولما كنت أريد أن أبرئ ذمتي، لأنني مطلع على هذه الحقيقة، لهذا أتيتكم بإفادتي هذه كي

أطلعكم على هذه المؤامرة المؤسفة التي حيكت من أكثر المقربين لي.

وبعملي هذا أراني قد قمت بالواجب الذي يفرضه على ضميري وواجبي، والسلام.

لكن الدكتور داهش تمكن من العودة سرًا، بعد أكثر من شهر، إلى بيروت، مرفقًا بعناية الله. ومن محتجبه القسري فيها، احتكم إلى قلمه، سلاحه الوحيد في مواجهة مضطهديه، وفي الدفاع عن قضيته العادلة، وأعلنها عليهم حربًا قلمية لا هوادة فيها دامت ثماني سنوات متواصلة. ولم تتوقف إلا بعد أن ثار الشعب اللبناني على ذلك العهد، وأسقطه إلى غير رجعة، وذلك في 18 أيلول/سبتمبر 1952.

وبعد بضعة أشهر، أعادت حكومة رئيس الوزراء، الأمير خالد شهاب، الجنسية اللبنانية للدكتور داهش مع كامل حقوقه وحرياته، وذلك في عهد الرئيس الجديد كميل شمعون.

كانت القضية في نظر الدكتور داهش قضية الحرية الفكرية بامتياز، فانبرى يسجل أحداثها بنفسه في عشرات من الكتب التي باتت تُقرأ اليوم على أنها جزء من تاريخ الاضطهادات الكبرى في تاريخ الإنسانية.

وقد غدت ماري حداد في تلك المرحلة كالجريحة التي تأبى الضيم، فلا تهدأ حتى تنتزع حقوق المظلوم من ظلامه!

فمنذ اللحظة الأولى للاعتداء عليه، استلت قلمها النبيل، وراحت تدبج البيانات إلى أبناء وطنها، وإلى رئيس منظمة الأمم المتحدة، وسفراء الدول وقناصلها المعتمدين في لبنان، ورؤساء وملوك الدول العربية، شارحة لهم فيها حقيقة مبادئ الدكتور داهش وأهدافه، وتفاصيل الجريمة المرتكبة بحقه، ومطالبة إياهم بالتدخل العاجل لوقف تلك المظلمة.

وكان الدكتور داهش قد بدأ، بعيد عودته من المنفى، يصدر الكتب حول القضية، بما فيها بيانات ماري حداد ورسائلها. وكانت طافحة بأخبار المظالم في البلاد وسرقات المسئولين لأموال الشعب، إذ إنها لم تقتصر على الشأن الخاص فحسب، بل تعدته إلى الشأن العام بكل ما كان يتكشف عنه من مساوئ العهد ومخازيه.

وكان من نتائج تلك الحملة القلمية أن أوقفت ماري حداد، وسُجنت أكثر من مرة، وزُج بها في مستشفى المجانين، المعروفة باسم العصفورية، لتقضي فيه 73 يومًا. لكن مرتكبي تلك الجريمة خافوا من مغبة التمادي في إبقائها خلف تلك الجدران المرعبة، نظرًا للذيول الهائلة التي سيجرها هذا الأمر عليهم، فبادروا بالإفراج عنها.

وقد خرجت مرفوعة الرأس، موفورة الكرامة، لتتابع مسيرتها النضالية من حيث توقفت، وتكتب مذكراتها عما عانته في تلك الأيام من أرهب المخاوف وأشد الآلام، وعما شاهدته من جرائم ترتكب في ذلك المكان الجهنمي الحافل بالويلات.

وقد رأيت أن أقدم هاهنا شذرات مما جاد به قلمها المبدع ضمن البيان الذي رفعته إلى أبناء وطنها. وها هي:

إنني أشهد أمام الله أن الدكتور داهش هو مثال النبالة والشرف. وهو بتعاليمه السامية، ينشد أرفع وأطهر ما يصل البشر إلى معرفته من أخلاق كريمة وآداب رفيعة، ويعلن لإخوانه أن الحياة ليست إلا مرحلة تجربة وتهيئة لحياة ثانية.

إن الدكتور داهش ينادي بالإخاء بين البشر قاطبة، مهما اختلفت عناصرهم وتعددت شرائعهم.

وفضلًا عن ذلك، فإن الله قد وهب هذا الرجل العجيب قوة روحية خارقة لم تعط إلا الذين اختارتهم العناية الإلهية، ومسحتهم منذ الأزل ليكونوا مصابيح هداية ومشاعل نور للبشرية في هذه الأرض المظلمة. وقد شاهد كثيرون -وأنا منهم- قبسًا من ظاهرات هذه القوة الروحية، الأمر الذي أيقظ إيماني بخلود الروح وثبته.

من عرينه السري الذي لم يكن يبعد عن القصر الجمهوري أكثر من بضع عشرات من الأمتار، شن الدكتور داهش على بشارة الخوري وأعوانه حملة، حيث كتب 66 كتابا أسود، و165 منشورا فضح فيها مؤامراتهم على الشعب ومخازيهم الشخصية، جميعها صدرت باسم ماري حداد، وقد تبنتها ماري شخصيا، وأرادت أن تصدر باسمها إمعانا في إحراج بشارة الخوري، زوج شقيقتها وإبعادًا للشك في وجود الدكتور داهش في بيروت.

بعد أن انتهت تلك المرحلة الأليمة، عاود الدكتور داهش، بعد استرداد جنسيته، استقبال زائريه، ونشر أفكاره، سواء في مؤلفات أدبية أو مقابلات صحافية.

لاقت أفكاره تجاوبًا كبيرًا في المجتمع اللبناني، فتجمع حوله مؤيدون ومعجبون كثر، وأقيمت المحاضرات والندوات لدرس شخصيته ونشر عقيدته الروحية.

كانت المرة الأولى التي سمعت بها باسم الدكتور داهش، عندما نشرت الصحف ما حدث له في باريس.

فبعد أن اتسعت شهرته، تناهت أخبار معجزاته إلى المحافل العلمية في باريس، فأرسلت إليه جمعية المباحث النفسية الفرنسية تستضيفه، فسافر إليها برفقة شقيقته أنطوانيت.

طلب المجتمعون منه أن يريهم معجزة من معجزاته، أجابهم أنه سيريهم آية يونان النبي يونس. فطلب منهم وضعه في صندوق حديدي، ويحكم إغلاقه، ويدفن في قعر نهر السين، سبعة أيام تحت الحراسة المشددة، أجفل المجتمعون أولًا، لخطورة العرض، لكنهم عادوا فقبلوا، عندما كتب لهم إقرارًا بأنه هو المسئول عن عاقبة طلبه. وبعد أن فحصته لجنة طبية، قاموا بتنفيذ طلبه.

وبعد مضي 7 أيام، وأمام 150 شاهدًا من المهتمين بالأمور النفسية، رفع الصندوق، وفتح. وإذا بالجثمان الساجي يتحرك، وبالوجه الواجم يبتسم.

وبعد هذه المعجزة المذهلة، منح داهش شهادة العلوم النفسية من قبل "الجمعية النفسية الدولية" بتاريخ 6 أيار/مايو 1930م، ثم شهادة الدكتوراه من قبل معهد "ساج" الإنجليزي في باريس، بتاريخ 22 أيار/ مايو 1930م.

وهكذا اقترن اسمه العلمي باسمه الروحي، ليعرف بين الناس باسم "الدكتور داهش".

ولقد تميزت حياته كلها، بنهمه الجارف إلى المعرفة. فمع أنه حُرم التعليم المدرسي في حداثته، فإن ذلك لم يصرفه عن طلب الثقافة، لا سيما الثقافة الأدبية والتاريخية والنفسية. كان أولًا يستعير الكتب من المكتبات العامة، ويكب على قراءتها ليل نهار. ثم جعل يقتنيها بعد ذلك حتى بات يملك واحدة من كبريات المكتبات الخاصة في لبنان.

لقد سعدت بمعرفة الدكتور داهش لسنوات عديدة، تحدثت، وتناولت الطعام، وسافرت معه.

كان يبدو عاديا كأي إنسان آخر. لديه شخصية فيها حس الفكاهة والرأفة. كان رجلًا متواضعًا وبسيطًا.

غذاؤه يتألف في معظمه من الفواكه والخضار (خصوصًا البصل)، والجبن.

في أعماق قلبه كان رفيع الثقافة، فطنًا، رفيع الخلق، بارًا، وحكيمًا.. لم يكن قادرًا على أداء معجزة إن لم يكن قد حان وقت حدوثها؛ إذ ينبغي لحدوثها أن يكون هناك سبب.

تمامًا كما حصل مع يسوع المسيح وجاء في الكتاب المقدس:

2 وذُعي أيضا يسوع وتلاميذه إلى العرس.

3 ولما فرغت الخمر، قالت أم يسوع له: ليس لهم خمر.

4 قال لها يسوع: ما لي ولك يا امرأة؟ لم تأتِ ساعتي بعد (يوحنا(4 :2

سمعت الدكتور داهش ذات مرةً يقول: "إن الناس نيام، وأنهم في لحظة موتهم يستفيقون".

أذكر أنه في صباح أحد أيام الصيف. اتصلت هاتفيًا بالدكتور داهش أطلب موعدًا لزيارته، فأجابني قائلًا لي: اترك كل شيء واحضر حالا.

فذهبت وكنا وحدنا، فسلم إليّ ورقة مطوية، ثم وضعها في ظرف صغير بقي مفتوحًا وقال لي: "احتفظ بهذه الورقة عندك إلى أن أطلب منك أن تفتحها، لأن فيها شيئًا مهمًا جدًا لك، إياك أن تفتحها قبل أن أطلب إليك ذلك لأن فتحها يضرك".

أخذت المظروف وفيه الورقة، ورجعت إلى مكتبي لأضعها في الدرج، ولما دخلت مكتبي تحرك فضولي، فقررت أن أفتح الورقة لأعرف مضمونها، فأخذتها بيدي، وقبل أن أباشر فتحها، رن هاتف مكتبي، فإذا بالمتكلم الدكتور داهش

فقال لي: "قلت لك لا تفتح الورقة لأن فتحها قبل أن أطلب إليك يضرك، اتركها مقفلة، ائت بها في الحال إليّ".

ولما وصلت أخذها مني وأحرقها ووضع رمادها في الظرف وقال لي: ارم هذا الرماد في الهواء قرب المنزل، لقد أضاع عليك فرصة مهمة وكاد يضرك.

ثم يبدو أن الجزع قد بان على وجهي، فأراد –بطيبة قلبه– أن يخفف عني فقال لي مازحا:

- هل تعرف يا خبصا أنك تشبه الموسيقار المصري محمد عبد الوهاب تمامًا؟

وجهي طولي، رأس كبير، وجبهة عريضة، الشعر يتراجع إلى الوراء، الأنف مستقيم، ونظرة العين حادة، النظارة مستديرة تشبه نظارة

عبد الوهاب في صوره المنشورة بالمجلات.

كنت قبل أن أعرف الدكتور داهش، أعيش حياتي المادية كطبيب أمراض جلدية ناجح وشهير، أما حياتي الروحية فقد كانت تدور في فلك حائر.

كنت أؤمن بعقلي فقط، فالعقل الحر عدو القيود، ولا أحد يحب أن يتمشّى الآخرون فوق رأسه!

لم أكن أؤمن بالأبدية.

لماذا نولد على الأرض؟ من نحن؟ هل نحن موجودون قبل مولدنا؟ إلى أين نحن ذاهبون بعد الموت؟ هل هناك حياة خارج هذا الكوكب؟ أو أننا وحدنا في هذا الكون؟ هل لدينا خيار أن نعيش أو ألا نعيش هذه الحياة؟ أو كان قد فرض علينا من آبائنا؟ أو من الله؟ ما الغرض من وجودنا؟ لماذا نولد مختلفين كثيرًا عن بعضنا بعضًا؟ لماذا يولد بعض الأشخاص أغنياء في حين أن آخرين يولدون فقراء جدا؟ لماذا يولد بعض الناس مع مواهب عظيمة مثل -موزارت، أينشتاين، شكسبير- في حين أن البعض لا يمتلكون أية مواهب، أو لديهم تخلف عقلي؟

لماذا يولد بعض الناس مع عاهة جسدية، مثل العمى أوالصمم أو الشلل في حين أن آخرين يولدون أصحاء؟ لماذا يولد شخص في دولة أفريقية، في حين أن غيره يولد في أوروبا الغربية أو في الولايات المتحدة الأمريكية؟

هل الإنسان هو الكائن الوحيد ذو الروح الحية مع النفس؟ هل الحيوانات لديها مشاعر؟ وماذا عن النباتات؟

كيف لنا أن نتوافق في هذا الكون الشاسع؟ ما الذي سيحصل معنا بعد موتنا؟ من أين أتينا؟

إن هذه وقضايا أخرى هي من الأهمية بمكان لتمكننا من الاستكشاف والفهم لتكون لدينا فلسفة حياة ذات معنى.

إن الانسجام مع الكون والمخلوقات الأخرى يجب أن يتحقق.

ما الحياة إذن؟ هل هي المكاسب التي نجمعها؟ مبلغ المال الذي لدينا في البنك؟ نوع السيارة التي نقودها؟ حجم المنزل الذي نعيش فيه؟ عدد الأطفال لدينا؟ مركزنا الذي نشغله في وظائفنا؟ مكانتنا التي نحملها في المجتمع؟ الوقت الذي نقضيه في الدراسة والقراءة؟ اللحظات الممتعة التي نقضيها في الألعاب الرياضية وغيرها من الأنشطة البدنية؟ مقدار ما نمارسه من الجنس؟ المشاركة والعطاء؟ الرحمة والمحبة تجاه الآخرين؟ حب الطبيعة والمخلوقات؟ الفئة الاجتماعية التي ننتمي إليها؟ الكنيسة، الجامع، المعبد، والكنيس الذي نحضره؟ البلاد التي

نعيش فيها؟

قد يقول البعض إنها كل هذه الأمور وأكثر من ذلك؛ وقد يقول عدد قليل إنه برغم أننا بحاجة لعدد كثير من هذه الأمور لتكون لدينا حياة، لكنها لا تعطي تعريفًا عن ما هي الحياة.

يرى الملحدون أن هذه الأمور هي من أساسيات الحياة. فبمجرد أن تنتهي الحياة لن يعود لديك شيء. أقول لهم: "إذا كان هذا كل شيء عن الحياة، فأنا لا أريدها، أعطوني سببًا واحدًا لماذا يجب أن أستمر في العيش؟".

إن ما يفهمه الناس من تعاليم الكتب المقدسة هو وجود الحياة بعد الموت. وعلى الإنسان العيش بالاستقامة، واتباع القواعد المنصوص عليها في الكتب المقدسة، لتحقيق حياة أبدية هانئة، حيث لا ألم ولا بؤس على الإطلاق.

وإذا انحرف الشخص وعاش حياة شر وإثم، فسيكون بانتظاره حياة بؤس وألم أبديين.

إن المفهوم العام الذي يستوعبه الناس من التعاليم الدينية التقليدية عن الحياة والموت يختص بالطبيعة التبادلية للنعيم والجحيم.

كانت هذه هي أفكاري حتى عرفت الدكتور داهش، وفهمت أسس العقيدة الداهشية التي تقوم على بعض الحقائق المهمة.

الحقيقة الأولى:

إن جميع الأديان تؤمن بوجود الروح وخلودها. أما البرهان الوحيد لوجودها فهو المعجزة، بخرقها لنواميس الطبيعة، وهي ليست من قدرة بشر.

لذلك جاءت الرسالة الداهشية لتبرهن على ذلك على يدي الدكتور داهش، لكن ليس بقدرته البشرية، بل بقوة الله الذي اختاره في أيامنا -دون سواه- لإتمام مقصده الروحي العظيم.

الحقيقة الثانية:

لقد أدرك حقيقة التقمص حكماء وفلاسفة كثيرون، منهم بوذا الحكيم، زرادشت، فيثاغورس، وأفلاطون.

تدعم هذه الحقيقة السماوية عدة آيات في الإنجيل والقرآن كالآية القائلة:

كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون (سورة البقرة: 28).

إن الرسالة الداهشية تؤكد هذه الحقيقة ببراهين ملموسة من خلال معجزات أجراها الله، بيد الدكتور داهش أمام صفوة من أبرز المثقفين في العالم، حيث لم يكن هناك مجال للشك، بل دحض لكل تعليم يحاول تحريف وتشويه كلمات الله في عقول المؤمنين.

فالإنسان، كما يؤكد الدكتور داهش لا يستطيع أن يكون سلوكه مثاليًا في الفترة القصيرة التي يعيشها على الأرض، لذلك أعطانا الله فرصة إصلاح أنفسنا والارتقاء بأرواحنا، فمنحنا نعمة التقمص، وربما أعطانا إياها ستة آلاف مرة، نعود فيها إلى عالم الأرض للارتقاء بأرواحنا لنبلغ جنة النعيم.

فإن تكرر مجيء الإنسان إلى الأرض دون أن يحسن سلوكه؛ وبقيت أعماله شريرة، إذ ذاك، يخلد في جهنم، وهذا يكون عدلا.

كما يؤكد الأديب العظيم الدكتور غازي براكس بقوله، إذ يقول وهو أحد أخلص أصدقائه الشرفاء:

"إننا لا نؤمن به إلهًا، بل نؤمن بأنه هادٍ من هداة الله، طِبقًا للآية القرآنية الكريمة: ولكلّ قومٍ هاد".

مما علمنا إياه الدكتور داهش؛ أنه لا يشترط أن يكون سكان العوالم الأخرى بهيئة بشرية أو من لحم ودم.

إن كل عالم محكوم بقواعد معينة لا تنطبق إلا عليه. قد تكون بعض العوالم، كالأرض، مادية بطبيعتها، وقد تكون عوالم غيرها أقل مادية.

إن الإيمان بوجود أشكال حياتية أخرى في الكون لهو مكون آخر من الداهشية.

لا ينبغي لنا أن ننظر إلى الموت باعتباره أمرًا سيئًا، لكن كبداية جديدة. ما دام أن الإنسان يعيش حياته في استقامة، فلا يوجد شيء يدعو للقلق.

أما إذا لم يكن الإنسان المتوفى قد سعى بالبر، فليس بوسعنا سوى أن نطلب له الرحمة الإلهية، لأن المعاناة التي سيمر بها قد تكون في أقصى حدودها.

والآن دعني أسأل:

كم هو عدد تلك المرات التي شعرت فيها بأنك ولجت مكانا ما، على الرغم من أنها كانت المرة الأولى لك فيه؟ يمكن أن ترى شخصًا لأول مرة وتشعر كأنك تعرفه منذ سنوات، وتملأ البهجة قلبك.

قد تشعر تجاه شخص آخر بلا مبالاة؛ وأيضًا نحو ثالث قد تشعر بالبغض لا لسبب على الإطلاق، أو ربما قد يكون هناك سبب. قد يكون شعورك ناتجًا عن مواجهة لذلك الشخص في تقمص سابق.

إن أحد الجوانب المهمة في التقمص هي؛ أنه لا أحد (باستثناء الوحي الذي يؤتاه نبي من الله لإنجاز هدف محدد)، يمكنه أن يعرف أي شيء عن حالته التقمصية السابقة.

لذا فبإمكاننا الاختيار بحرية بين الخير والشر.

هل يمكنك أن تتخيل كيف يمكن أن تعيش، مع علمك أنك قد ارتكبت عملًا بشعًا في تقمص سابق؟ وإذا تكرر معك الموقف نفسه، فهل ستتجنب ارتكاب العمل لأنك ما زلت تتذكر العقاب الذي نلته، هل ستمتنع لأن الخير الذي فيك انتصر على الشر؟ وأقول لك:

إذا ادعى أي فرد معرفة ما جاء في حياتك أو حيواتك السابقة، فلا ينبغي عليك تصديق هذه الادعاءات إلا إذا كانت لديك أدلة دامغة على أنه نبي مرسل من الله.

في أحد الأيام، وفي جلسة ضمت الدكتور داهش وعددًا من الداهشيين، منهم الدكتور فريد أبو سليمان، أخبرنا الدكتور داهش أن السيد المسيح جاء إلى صيدا وبيروت وبعض المناطق اللبنانية، ومنها (صربا) وكان برفقته بطرس الرسول وابنه آدوم، وأن آدوم قصد البحر ليصطاد السمك، فقرصت إصبعه سمكة سامة، فمرض وتوفي ودُفن في صربا، في التلة الواقعة وراء القصر الجمهوري سابقًا.

فتعجب الحاضرون من هذه القصة، ولما رآهم الدكتور داهش في حالة التعجب، طلب إليهم أن يرافقوه إلى صربا، فركبوا سياراتهم، وذهبنا جميعًا، وكان يحمل بيده عصا، ولما وصلنا إلى قرب المكان الذي أشار إليه، طلب إلينا التوقف والنزول من السيارات واللحاق به، فمشينا وهو يتقدمنا حتى بلغنا منتصف التلة وراء القصر المشار إليه، فطلب إلينا أن نتحلق حوله، ففعلنا، عندها رسم بعصاه دائرة صغيرة وقال بصوت عالٍ: "آدوم، آدوم، اخرج".

فانشقت فجوة في الأرض، وخرجت منها جمجمة، وقالت لنا إنها جمجمة آدوم. ثم أخذت تكلمنا وتخبرنا كيف توفي آدوم، وأنه دُفن في هذا المكان، ولما فرغت الجمجمة من كلامها، أمرها الدكتور داهش بأن تعود إلى موضعها، فاختفت تحت التراب.

أنا أمارس الطب منذ خمسة وثلاثين عامًا، ولا أؤمن إلا بالأشياء الحسية الملموسة. في عام 1930، حين كنت لا أزال أدرس الطب في باريس، فقدت مفكرة صغيرة كنت أدون عليها بعض الملاحظات اليومية. وعبثًا حاولت البحث عنها، وفي عام 1942، بعد أن اجتمعت بالدكتور داهش، وحضرت أول جلسة روحية، طلبت إليه أن يعيد إليّ، بواسطة الروح، المفكرة التي فقدتها في باريس.

فقال لي: "ضع يدك بيدي".

ففعلت، وإذ بالمفكرة نفسها في يدي. أخذتها، تفحصتها، وهي لا تزال معي حتى الآن.

وحكى لي أخي وصديقي الدكتور فريد أبو سليمان هذه القصة:

كنت ذاهبًا مرة مع الدكتور داهش لزيارة أصدقاء، وعندما وصلنا رأيته يسبقني على السلم ويخترق الباب في أعلى الدرج. وحين تبعته وحاولت الدخول بدوري، اصطدمت بالباب المقفل، وارتطم رأسي به.

إذ ذاك قرعت الجرس، ففتح لي أحدهم بعد دقيقتين وقال لي: "رأينا الدكتور داهش يقف بيننا فجأة ونحن جالسان، دون أن نراه يدخل من أي باب".

آنذاك علمت أن الباب الخارجي كان مقفلا عندما دخل منه الدكتور داهش.

بمناسبة مرور عيد النبوة في الثامن عشر من شهر يونيو، وهو أحد الأعياد الثلاثة التي تقام في الداهشية، إذ يأتي بعد عيدي تأسيس الرسالة وعيد ميلاد الدكتور داهش.

قررت أن أعيد قراءة كتاب "جحيم الدكتور داهش" وهو كتاب مهم للغاية، فات البشرية أن تحتفي به كما احتفت بكتاب "الكوميديا الإلهية" لدانتى، على الرغم من أن اثنين من كبار الأدباء قد تبارا في ترجمته.

فنقله الأستاذ يوسف حجار إلى الفرنسية، ونقله الأستاذ يوسف ملك إلى الإنجليزية.

وأنا أجد أن كتاب الدكتور داهش قد فاق كتاب دانتي كثيرًا.

ينقسم جحيم الدكتور داهش إلى ثلاثة أجزاء متساوية الفقرات والسطور، وكل جزء يشتمل على خمسين دركًا مظلمًا من تلك الدركات المرهبة والعوالم السفلية المرعبة، وكل درك يحتوي على أربعة وعشرين سطرًا مسجعة على أسلوب طريف مبتكر يدركه القارئ اللبيب.

يقول أخي الشاعر حليم دموس –المؤمن الثاني- وهو الذي أدين له بالفضل بأن عرفني بالدكتور داهش وعقيدته، أنه كان موجودًا عندما كان الدكتور داهش يخط هذا الكتاب، كتب "حليم" شهادته عما رآه فقال:

كان الدكتور داهش يضع أمامه عدة ورقات بيضاء ولا يلبث أن يكتب الورقة إثر الورقة بخط سريع عجيب غامض تعودت فك رموزه وحروفه، ثم لا ألبث أن أختار دفترًا جديدًا فأبيِّض في كل يوم ما يكون قد أنشأه في ذلك اليوم بسرعة لايتصورها فكر بشري، فكأنها مستمدة من الإلهام لا من أطراف الأقلام.

إهداء الكتاب: "ملحوظة من الدكتور داهش".

(تقرأ في سكون الليل بصوت هادئ خافت على نور ضوء ضئيل).

إلى رب الهاوية القاطن في أعماقها السحيقة

هناك حيث تجد الأهوال دومًا به محيقة

إلى الخائض في محيط لجب من الظلمات المدلهمة

حيث تنحل الأعصاب وتخور العزيمة وتفتر الهمة

إلى الهائم في عباب أودية الهول والرعب والهلع

والقاطن مع الطيوف الحائرة، والأشباح الدائمة القلق والجزع

هناك في تلك النخاريب التي تبعث الذعر في النفوس الأبدية الاضطراب

وحيث تتجول الأبالسة المروعة، وترتع الشياطين المعولة بضجيجها السرمدي

هناك حيث تزحف مجموعات مخيفة من أرعب الأفاعي الخالدة في جهنمها

ومن عقارب الظلام في تلك الأروقة الدهرية المتدفقة بالأهوال

فالغيلان الهائمة تختلط بالتوابع وهم يذرعون تلك الأعماق اللا نهائية

بينما يرسلون صيحات منكرة تهتز منها قلوب الهلكى فتنخلع من هولها

ويطلقون ولولة هائلة ترجعها تلك الردهات المخيفة بجبروت جارف

إلى سيد الظلمات.. ورب الآثام.. ومؤدب الطغام

إلى الهازئ بالنعيم.. القاطن في أعماق أعماق الجحيم

والمخلد في أتونه السرمدي من جيل إلى جيل

حتى انقضاء الأعمار والأدهار

أرفع (جحيمي) هذا

1944

الدرك المظلم الأول:

الولوج إلى موطن الظلام الدامس

النحيب العظيم يملأ الأرجاء المظلمة الكئيبة

عجوز دهرية تولول وتضج فيرجع الصدى عويلها المخيف

انا الآن أسعى كالأفعى

في عالم الظلام الدامس

وها إني أمر بوجه كئيب عابس

وأسمع النحيب العنيف

وهمهمة الوجيب المخيف

وها عجوز دهرية تولول وهي تقعي

دهاليز عجيبة ومناظر رهيبة غريبة

أشبح مزعجة تطوف في أودية الليل البهيم

تنقيبها في مملكة الظلام أجيالا طويلة

اخترقت كافة طبقات الأرض

واجتزت دهاليزها العجيبة

فإذا بمناظرها هائلة وأشباحها رهيبة

تطوف في أودية الليل الثقيل

وتبقى في تطوافها من جيل إلى جيل

منقبة بصبر غريب في الطول وفي العرض

صياح دام ودمدمة كدراء شنعاء

جمر خالد يسكب دون حساب على رؤوس الخطاة

هول وضجيج يملآن رحاب هذا الدرك المرعب

استقبلني صياح دام وصخب وضجيج

وشاهدت الجمر الخالد يسكب على الرؤوس

وتهوي عليها الأيدي حاملة الفئوس

ثم يفغر الحجيم فاهًا فتختلط الأجسام بالجمرات

فيرتفع النحيب من سكان هذا المكان وتهمي العبرات

ويضج الحجيم بالهول والعجيج

* * *

كانت هناك الكثير من المشكلات بيني وبين زوجتي التي لم تكن تؤمن بالدكتور داهش وخوارقه. كانت دائمًا ما تنتقدني وتهاجمني وتثور المشكلات بيننا لأني أقضي معظم أوقاتي مع الدكتور داهش، ولأني أتحدث عنه طوال الوقت.

حتى جاء هذا اليوم الذي لا أنساه ما حييت.

ذكر الشاعر الأخ حليم دموس –مؤرخ الرسالة الداهشية- هذه الواقعة، كما جرت في كتابه "المعجزات والخوارق الداهشية المذهلة" حيث سجل ما جرى بالحرف الواحد:

ظاهرة 25 آذار/مارس :1943

منذ مدة أصيب روبير، نجل الدكتور خبصا البكر، بداء الرئة، وتفاقم أمر هذا المرض، فاستعملت له شتى العلاجات لكن دون فائدة.

وفي هذا الصباح اشتد الخطر على اليافع، فاندفعت زوجة الدكتور خبصا وقالت لزوجها:

- طالما سمعتك تردد آيات ومعجزات حدثت وتحدث بواسطة صديقك داهش، فالآن آزفت الساعة التي يجب عليه أن يبرهن فيها أنه صاحب معجزات كي أؤمن به، فهل لك أن تذهب إلى صديقك الذي تؤلهه عساه ينفعك بشيء؟وإلا فإنني أقول أن جميع ما ذكرته لي ليس إلا من قبيل الدعاية.

وحضر الدكتور خبصا كعادته وقص علينا هذا الحديث، وأنبأنا بالخطر المحدق بنجله العزيز، وقال إنه سيأخذ الدكتور حبطي إلى حيث يقيم، مع أن الطبيب المذكور سبق أن عالج ولده دونما فائدة وإذا بالدكتور داهش يقول له:

- لا ضير على ولدك أيها الصديق.

ثم جثا ورفع صلاة حارة إلى الله تعالى ليشفي المريض، وكانت الساعة -إذ ذاك- الخامسة مساء وقد جثونا جميعًا وشاركناه في الصلاة، وعند الانتهاء سلم الدكتور خبصا حجرًا مقدسًا سبق أن أعطى لي في جلسة روحية منذ تسعة أشهر، وقيل لي يومئذ أن أحتفظ به جيدًا، وقد زودته بالمعلومات التي يجب عليه أن يتقيد بها ساعة وصوله إلى منزله كي يبرأ نجله وينهض مسرورًا.

وفي اليوم التالي حضر الدكتور خبصا ووجهه يطفح بشرًا وعيناه تلمعان ببريق الفرح والغبطة، وبشرنا أن ولده شفي من علته في الليل الماضي بصورة عجائبية وروى لنا ما جرى معه إذ قال:

- بعد اجتماعنا هنا مساء أمس، ورفعنا الصلاة لله، وتزويدي بالحجر المقدس، انطلقت بسيارتي وتوجهت رأسًا إلى بيتي وأفكاري مضطربة من حالة ولدي الصحية، حتى إنني كنت يائسًا من شفائه بعد أن انحطت قواه كثيرًا، وذهبت مساعيي ومساعي الدكتور حبطي سدًا، وحين دخولي إلى البيت وجدت انشراحًا على وجوه الجميع، وقالوا لي منذ الساعة الخامسة شعر روبير فجأة بتحسن غريب، حتى إنه التفت وقال لوالدته: "شعرت كأن شيئًا انسحب وخرج من جانبي".

وهنا تذكرت أن الساعة التي اجتمعنا فيها للصلاة بمنزل الرسالة مع النبي الحبيب الهادي والأخوة والأخوات كانت الخامسة، ثم أمرت أهل البيت أن يرفعوا جميع الأدوية والعقاقير ويخرجوها من الغرفة، وبقيت وحدي مع ولدي المريض، وأخرجت من جيبي حجر الأب الجليل بطرس وأمررته على رأسه وجنبيه وفمه وظهره وصدره وطلبت إليه أن يسأل معي الله الحي والنبي الحبيب الهادي والأب بطرس شفاءه من علته وذهاب كل خطر عنه، فكان يردد بخوف وخشوع كل كلمة.

وهنا دخل علينا أهل البيت وأفهمتهم ماذا فعلت، وما هي إلا هنيهة حتى شعر روبير بقشعريرة باردة ورجفة في جميع أعضائه، ثم بدأ جسمه الغض يندى بالعرق، وبدأت الحمى تهبط تدريجيًا، وهنا أخذته والدته وأهل البيت وألبسوه ثيابًا جديدة وبدأ يرتاح رويدًا رويدًا فجلس في سريره وطلب طعامًا، وأصبح بحالة طبيعية هادئة فشمل السرور قلوب الجميع، ومجدوا الله العظيم، وقررت زوجتي الحضور بنفسها غدًا إلى منزل النبي الحبيب مستغفرة تائبة، شاكرة له هذه النعمة الكبرى التي أسبغها علينا بشفاء ولدنا البكر بعد أن كان الخطر يتهدده.

وهكذا آمنت زوجتي بعد أن كانت طوال المدة الماضية عديمة الإيمان.

* * *

تعقيب المؤلف

لم أتفوّه بكلمة واحدة حتى أوصلتني فاطمة إلى الفندق، سألتني عن ذلك، فرددت باقتضاب:

- مرهق.

عند باب الفندق أخبرتها أني سأصعد مباشرة إلى غرفتي لأنام، كنت قد تعودت أن تجلس معي في كافيه الفندق لساعات نتكلم، شعرت بأني أحرجتها، قالت إنها ستمر علي في الغد. نزلت من السيارة ودخلت الفندق.

ما إن دخلت غرفتي حتى فتحت الإنترنت، وبدأت في البحث عن كارلا صايغ، لم أجد الكثير، مجرد خبر صغير في جريدة يومية يقول:

أقدمت كارلا صايغ 25 سنة على الانتحار أمس بإطلاق الرصاص على رأسها، ولم تترك أي رسالة انتحار خلفها، ولم تعرف بعد أسباب هذا الانتحار، كارلا روائية شابة صدرت لها روايتان، وحصلت روايتها الأخيرة على جائزة معرض بيروت الدولي للكتاب منذ عامين. كان آخر ما كتبته كارلا على صفحتها على فيس بوك عبارة: لست على ما يرام.. هناك شيء ما. وتحقق قوى الأمن في هذه الواقعة.

بحثت عن أي أخبار أخرى لهذه التحقيقات فلم أجد شيئًا.

تركت الموبايل من يدي واستلقيت على ظهري على السرير، أحدّق في السقف وأفكر، من تكون كارلا؟ قالت السيدة العجوز: إن فاطمة كانت تصحبها إلى بيت داهش.

لماذا؟ هل كانت كارلا أيضًا تكتب رواية عن داهش؟

و.. فاطمة؟ من هي؟ ماذا يختفي وراء هذا الوجه الجميل والعينين السوداوين اللتين لا مثيل لهما؟ تذكرت أنني لم أصافحها اليوم –كما تعودت كل ليلة– كنت بصراحة أتصنع أني أريد أن

أصافحها في حين أني كنت أحب أن ألمس يدها. أن أشعر بكفها الصغيرة الرقيقة الناعمة بين كفي.

من أحب الدكتور داهش فعلا؟ ماجدا؟ أم زينا؟ أم أمهما ماري حداد؟ والأخت الثالثة أندرة، ما دورها في الداهشية؟

فكرت أنه يجب عليّ اختصار مدة إقامتي في لبنان؟ من يعرف ماذا سيحدث لي؟ حتى عائلتي لا تعرف عني إلا الكذبة التي أخبرتهم بها بأني أعمل في إحدى المؤسسات الثقافية ببيروت؟

لماذا لم يتصل بي أي من أفراد عائلتي منذ وصلت إلى بيروت؟

من ذلك الشخص الذي أعدم -ورأيت بعيني صورته في منزل داهش- إذا لم يكن هو نفسه الدكتور داهش؟

لم أستخدم اللاب توب حتى الآن إلا في تدوين ملاحظاتي، لم أكتب سطرًا في الرواية. غدًا سأخبر فاطمة أني سأبدأ في كتابة الرواية عندما أعود إلى مصر. من يعرف إذا كتبت الرواية هنا ماذا سيحدث لي بعدها؟

لمَ انتحرت كارلا صايغ بإطلاق الرصاص على رأسها؟

هل ستعود معي فاطمة إلى مصر مرة أخرى؟

من قال إن اسمها فاطمة؟ اللبنانيات تكون أسماؤهن: كارلا، ستيفاني، دانييلا، باسكال،....

ما علاقة فاطمة بكارلا صايغ؟

ماذا حدث للدكتور داهش، وهو مراهق يعمل مصلحًا للدراجات حتى تحول إلى ساحر فجأة؟ مَن علمه السحر وفنونه؟ الطفل الذي تعلم لشهور في ميتم ولم يحصل على شهادة تعليمية، كيف أصبح مع مرور القليل من السنوات هذا الأديب البارع بفنون الكتابة وأسرار البلاغة؟

لماذا اختار النجمة الخماسية –وهو رمز سين السمعة– ليكون الرمز المقدس للداهشية؟

قصة طويلة للنجمة الخماسية معقدة على مر التاريخ ترجع إلى نحو 3500 سنة ق. م. في بلاد ما بين النهرين القديمة تم العثور على هذا الرمز جنبا إلى جنب مع علامات أخرى.

تم الكشف عن النجمة الخماسية في كهوف بابل القديمة، وكانوا يعتقدون أنها -حين ذاك- ترمز لكوكب الزهرة في السماء.

وظلت شعبية الشعار من خلال العديد من الثقافات وبين الفترات الزمنية..كما نشهد بعضها في رسومات ليوناردو دافنشي.

الفيثاغورسيون كانوا يعتبرون هذا الرمز ذروة الإتقان الهندسي، وكانوا يرون فيه المدخل إلى

(تاتاروس) وهو الصورة الأولية للجحيم في خيالهم.

واعتبروا أن النجمة الخماسية ترمز إلى خمسة عناصرمكونة للطبيعة، وهي الأرض، الهواء، الماء، النار، والروح.

عند اليهود كانت النجمة ترمز إلى خمسة كتب؛ أسفار موسى المقدسة "التوراة".

في وقت مبكر عند المسيحيين كانت ترمز هذه النجمة إلى جروح المسيح الخمسة وهي:

"جرحان في المعصمين، جرحان في الكاحلين والطعنة في الخاصرة".

إن علاقة النجمة الخماسية بالسحر طويلة جدا، حيث كانت تستخدم في الطقوس والشعائر من قبل السحرة.

وإذا كانت النجمة داخل دائرة، فهي تمثل مكانا "مقدسًا" حيث تسيطر فيه (الروح) على العناصر الأرضية الأربعة، وتستخدم للحماية من السحر.

***

اتصلت بي فاطمة صباح اليوم التالي، واعتذرت عن المجيء. مكثت طوال اليوم في شرفة غرفتي بالفندق أكتب ملاحظاتي على اللاب توب، وأفكر: من ذلك الشخص الذي سأقابله في الغد؟ أم يجب ألا أذهب؟ أن أهرب كما نصحتني السيدة العجوز؟

راجعت أوراقي وتذكرت كتاب "جحيم داهش" الذي نشر عام 1944

يبدو أن هذا الكتاب وضع على نهج كتاب "الكوميديا الإلهية" لدانتي، لكن إذا كانت الترجمة العربية لكتاب دانتي بدأ مترجمها حسن عثمان، في ترجمتها في 21 اكتوبر 1951، ونشرت في مايو 1955، فهل سبق الدكتور داهش –بخياله وهو الذي لا يعرف اللغة الإيطالية– الترجمة العربية لدانتي؟

أثارني هذا الخاطر وشرعت أبحث كثيرًا حتى إن الشمس غربت دون أن أنتبه أني لم أتناول طعامًا طوال اليوم.

كان الصداع يفتك برأسي عندما اكتشفت أن الترجمة الشهيرة لحسن عثمان لم تكن هي الترجمة العربية الأولى لدانتي، فقد ترجم عبود أبي راشد الكوميديا نثرًا بعنوان "الرحلة الدانتية في الممالك الإلهية" ونشرها في طرابلس الغرب في ثلاثة أجزاء في 1933 – 1930 ، ثم اكتشفت ترجمة كتاب "حجيم دانتي".

تعريب الأستاذ أمين أبو شعر المحامي -مطبعة الأرض المقدسة بالقدس 1938 في 185

صفحة.

إذن، فقد كانت هناك ترجمة في "القدس" عام 1938، أي قبل ست سنوات من تأليف "حجيم داهش"، فهل إطلع الدكتور داهش –وهو المفتون باقتناء الكتب– على هذه الترجمة قبل أن يشرع في تأليف كتابه؟

وإذا كان "حجيم داهش" نشر عام 1944، أي سبق نشر الترجمة العربية الكاملة لدانتي، التي قام بها حسن عثمان ونشرت عام 1955، فلماذا لم يشتهر "حجيم داهش" طوال إحدى عشرة سنة بين القراء؟

الغريب أيضًا أن داهش قد أصدر بعدها بسنوات كتاب "النعيم" في ثلاثة أجزاء لتكتمل "كوميدياه الإلهية"!

تعبت!

مكتبة
بيت الحصريات
maktabbah.blogspot.com

مكتبة بيت الحصريات
maktabbah.blogspot.com

مكتبة بيت الحصريات
maktabbah.blogspot.com

الفصل الخامس

فاجعة بيروت

حليـم دمـوس

31 كانون الثاني/ يناير 1944

رئاسة البوليس العدلي، مكتب إدوار أبي جودة

خضعت لتحقيق مرهق استمر لساعات. ما زلت أذكر بعض أسئلته.

س:...

ج: إن معرفتي بالدكتور داهش تمتد منذ عام 1936 وليس له من مهنة سوى تأليف كتب أدبية اجتماعية، وكان قد سافر إلى العراق ومصر وفلسطين وأفريقيا وأوروبا وشهدت خوارقه المحافل العلمية.

أما سؤالكم عن أمواله، وأين هي؟ فهذه أمور شخصية يمكنكم أن تسألوه عنها رأسًا. هو يعيش بكل بساطة، وأعرف تمام المعرفة أنه مستغنٍ عن جميع الناس، ويفرق الزائد عليه في كل شهر على عائلات مستورة، ولو شاء الثروة بما عنده من مواهب وقوى خارقة لأصبح في مدة قصيرة روكفلر لبنان، بل قارون هذا الزمان.

س:...

ج: لقد شهدت منه ظاهرات روحية خارقة بحضور بعض أعوانه، وإخوانه، ولي الشرف أن أكون منهم، وما ذلك إلا طلبًا للحقيقة، ورغبة في معرفة أسرار الكون العجيب الغريب، وأن من ينشد الحقيقة السامية كالدكتور داهش، يجب تنشيطه لا تثبيطه، خصوصًا أن كثيرين من رجال ونساء كانوا منغمسين في حمأة الرذيلة، فأصبحوا اليوم، بفضل تعاليمه السامية الجليلة، سالكين طرق الصلاح والفضيلة.

وأنا منذ عشرين شهرًا، متصل به لتبييض عدة كتب أدبية له جاهزة للطبع. وطالما ألبس العراة، وأطعم الجياع، وخدم البائسين سرًا، وهداهم إلى الطريق القويم.

س:...

ج: الدكتور داهش يعيش مع عائلته على نفقته الخاصة، ومن ماله الخاص، أما الذين يعتقدون بأعماله الروحانية ويؤمنون بها، فإنهم يستفيدون منه ومن تعاليمه دون أن يفيدوه.

فأنا مثلًا، كنت ماديًا محضًا، فأصبحت روحانيًا خالصًا، وما ذلك إلا بفضل الدكتور داهش

وروحانياته. فقد تكشفت لي حقائق سماوية عظيمة.

إن شهادتي عن الدكتور داهش، مجردة عن كل غاية، فهو إنسان صالح، طاهر السيرة، عف اليد واللسان، يعيش عيشة السيد المسيح، وتلامذته، والنبي محمد وصحابته، ويعمل الخير حبًا بالخير، وقد أتى أمامي بمعجزات خارقة. وأعتقد كل الاعتقاد أن ما قام به الدكتور داهش من الأعمال الحسنة والظاهرات الروحية الخارقة، يساعد الحكومة والشعب على تهذيب الأخلاق، وتقريب النفوس البشرية من المبدع الخلاق. فهو في نظري يستحق إعجاب لبنان، وتمجيد الإنسانية لعبقريته النادرة، ومعجزاته الروحية الباهرة، التي تسيرها قوة خفية إلهية قادرة.

لكنهم –مع ذلك- ألقوا بي في السجن مع الإخوة جورج حداد والأديب يوسف الحاج.

كان هناك الكثير من الأفكار تدور في رأسي في ليالي السجن الرهيبة.

لماذا تجري الحوادث؟ هل هي ما نعتقده عنها أم إنها ترتيبات مدروسة؟

افترض أنك تقود سيارتك، وفجأة، تقطع قطة ما الطريق مباشرة أمامك، فهل تضرب الفرامل محاولا تجنب قتلها؟ أم تتابع قيادتك كأن القط شيء يستهان به؟ إذا بذلت أفضل ما لديك لتجنب الاصطدام وأخفقت، فأنت غير ملام، فهكذا قدر للأمور أن تجري. إذا نجحت في تفاديها فستشعر بالرضا وستشكر الله تعالى على عدم قتل الحيوان، لكن إذا لم تحاول تفادي صدم القط، فمن المتوقع أنك مسئول عن ذلك، وستنال عقابا ما في وقت لاحق.

عندما كانوا يأخذوني ويجلدونني بالسياط، كنت أردد كلمات الدكتور داهش بقلب متخشع، وهذه هي الكلمات: "ربي، قوّني وسدد خطواتي نحو الفضيلة، انزع من أعماقي الميول الوضيعة الدنيئة، ولا تدعني أسير الشهوات الدنيوية، نقّ قلبي، يا الله وطهر روحي، ودعني أسمو بنفسي الكئيبة، أقِل عثرتي، ولا تدعني فريسة للذنوب الرهيبة، طهرني، يا الله، ودعني أتفيأ جناتك الظليلة".

ويبدو أن الله قد استجاب لصلواتنا، وانتهت المحنة بعدما سجنت لنحو سنة.

رجعت إلى مصاحبة الدكتور داهش، وشرعت في العمل على كتابه الذي شهدت بنفسي معجزة كتابته وهو "مذكرات دينار" وله قصة غريبة. فهي رواية عجيبة لم يستغرق الدكتور داهش في تأليفها سوى ساعات معدودة في خلال اثني عشر يومًا "من 3 حتى 14 كانون الثاني/ يناير 1946". بطلها دينار ذهبي تداولته الأيدي، فطوّف في شتى أقطار الأرض زهاء قرن كامل. تنقل بين المدن والقرى، والقصور والأكواخ، والأديرة والحانات؛ وجاب الفضاء وغاص في المحيطات؛ وعاشر الأخيار والأشرار، وجالس الملوك والعامة؛ وأصغى إلى أحاديث الحيوان؛ وشهد ثورتين تحرريتين في الهند ومصر، وحربين عالميتين، وحربًا عالمية ثالثة! ولقد نقل مشاهداته ببراعة القصاص، وأطلق أحكامه بحكمة الفيلسوف.

طبع الكتاب في اللغات العربية والفرنسية والألمانية والإسبانية.

وقد أطلق عليه لقب "أوديسة القرن العشرين" وقد جاء في 464 صفحة.

وهو في رأيي، ملحمة تنافس الأوديسة الشهيرة لو كان هناك عدل في هذه الحياة، لكن يبدو أن أعداء الدكتور داهش قد نجحوا في التعتيم على أعماله الأدبية العظيمة التي تضاهي أعظم الإبداعات الإنسانية.

وقد كتبت بنفسي شهادتي عن هذا الكتاب في الكتاب الذي ألفته بعنوان "المعجزات والخوارق الداهشية المذهلة".

وفيه رويت بعض ما صنعه الدكتور داهش عام 1943، ومنها قصة تأليف كتاب مذكرات دينار، وكانت شهادتي هي:

"ما أنا إلا شاهد أمين أنقل مشاهداتي بأمانة تامة معلنًا استغرابي الشديد لحدوث هذه المعجزة الأدبية الملهمة.

يشهد الله أنها معجزة فريدة من معجزاته العديدة، فإن الدكتور داهش صمم على تأليف كتابه "مذكرات دينار" وأراد أن ينفذ فكرته بصورة جدية عملية، وإذا بي أراه يجلس وراء مكتبه في إحدى خلواته ويبتدئ في الكتابة بسرعة عجيبة، هي سرعة الطائر المتنقل من غصن إلى غصن، ومكث تسع ساعات كاملة مكبًا على تدوين أفكاره بصورة متواصلة.

ثم قدم لي ما أخرجه قلمه من صفحات، بل نفحات لأبيضها كعادتي في كل ما يكتبه، فأعود لأنظمه شعرًا عربيًا لأبناء بلادي.

ومضى أسبوع كامل خرج في نهايته كتاب مذكرات دينار ناجزًا تامًا رائعًا بعد أن أبدع فيه بوصف أمراضنا الاجتماعية من شرقية وغربية، ففكك أوصالها وذراتها.

نعم إن هذا السفر الضخم الذي ألمَّ فيه الدكتور داهش بكل صغيرة وكبيرة في أكثر شئون الحياة وأدقها، التي غاص إلى أعمق أعماقها وحللها تحليل الخبير الماهر لم يستغرق في تأليفه أكثر من سبعة أيام لا تزيد ساعة واحدة!

وبرغم أن كثيرين سيتهمونني بالمبالغة والتهور وعدم التصديق فإني لا ألومهم، ولا يسعني أن أعتب عليهم.

إن كتابًا حيويًا كهذه المذكرات إذا انكب على تأليفه أحد المؤلفين الأفذاذ، الذين قطعوا المرحلة الخامسة من أعمارهم، يحتاج إنجازه إلى بضعة أعوام على الرغم من خبرته الدنيوية وتذوقه حلاوة الأيام ومرارتها.فكيف بالدكتور داهش وهو بعد في منتصف عقده الثالث؟

وبحمد الله، فهناك كثيرون من أصدقاء الدكتور داهش ومحبيه وأنصاره ومريديه قد شاهدوا ما شاهدته وهم يؤكدون أقوالي ويؤيدون، ومثلما شهدت أنا، فهم بدورهم يشهدون..".

ولقد تشكك المتشككون في أن الدكتور داهش ليس هو من ألف هذا الكتاب، وإنما هي روح أملت عليه هذا الكتاب، واستدلوا بوقائع حدثت منها:

مات تشارلز ديكنز في 8 تموز/يوليو سنة 1870، قبل الانتهاء من روايته الأخيرة "لغز إدوين

درووود" وأتمها بعد موته عن طريق الوسيط الأمريكي ت. ب. جيمس في مدينة بوسطن خلال سبعة أشهر من الكتابة التلقائية بين عامي 1872 و1873، وبلغت صفحات التكملة ألفًا ومائتي صفحة ونشرت سنة 1874، وقد شهد أبرز رجال الأدب والصحافة، أنه يتعذر تمامًا على أي قارئ أن يميز بين ما كتبه ديكنز قبل وفاته وما كتبه بعدها، سواء في الأسلوب أو في تسلسل الحوادث، بل حتى الأخطاء الإملائية التي كانت تميز كتابات ديكنز أثناء حياته ظلت على حالها.

وكان الوسيط مجرد غلام يعمل في الصناعة، ولا صلة له بالأدب ولا تشارلز ديكنز.

وقرر جوته عن كتابة روايته "آلام فرتر":

"لقد كتبت هذه الرواية غير واع تقريبًا كما لو كنت غائبًا غيبوبة مغناطيسية حركية، حتى لتأخذني الدهشة عندما أقرأها".

وأنا لن أرد على هذه الافتراءات، لأن موهبة الدكتور داهش قد أنبأت على نفسها منذ حداثته وقبل إرسائه للرسالة الداهشية.

أما عن الظاهرات الروحية التي شهدتها، فقد سجلتها في أكثر من كتاب، وهذه بعض منها على سبيل المثال وليس على سبيل الحصر:

ظاهرة يوم 26 آيار/ مايو :1943

كان الدكتور داهش جالسًا إلى جانبي يفكر، وبعد قليل شاهدته يغادر الغرفة فجأة، فسألته:

- إلى أين؟

قال:

- سترى.

وما غاب عن عيني حتى رنت في أذني أصوات مرتفعة تلاها صخب وضجيج هائلان، فهرولت لأستكشف حقيقة الخبر، فإذا بي أرى الدكتور داهش قد أمسك بتلابيب شخص آخر، هو نسخة طبق الأصل عنه، فدهشت وذعرت للوهلة الأولى، ولما كنت قد تعودت حضور الظاهرات الداهشية أكثر من سواي، وسبق أن شاهدت شخصية الدكتور داهش الثانية قبل اليوم، فإنني لم أفاجأ مفاجأة عظمى، وبعد قليل، تبخرت الشخصية الروحية، وتوارت عني، ومكث الدكتور داهش، بجسمه المادي أمامي.

ورقدت وأنا مغمور برعاية الله القادر على كل شيء.

من كتب الدكتور داهش الأخرى التي عملت عليها كتاب "ناثر وشاعر"، وعندما صدر هذا الكتاب كتب على غلافه الخلفي:

في هذا الكتاب، يعيد الدكتور داهش صياغة معظم ما كتبه من سنة 1930 حتى أوائل عام 1950، في مقطعات مسجعة لا تتعدى الأسطر الثمانية. ثم يتولى الشاعر حليم دموس نقلها

(وقد أربى عددها على الستمائة) من صيغة النثر إلى صيغة الشعر، يدفعه إلى ذلك إدراكه "مساقط تلك الكلمات العلوية، وحقيقة مهابط تلك المشاعر القلبية" على حد تعبيره. ولقد اتصف نظمه بسلاسة وأمانة تكاد تكون تامة.

ماذا كنت عليه قبل أن أهتدي إلى الدكتور داهش؟

كنت أديبا وشاعرا من الرعيل الأول، ناديت بالنهضة العربية، ورفع لواء اللغة العربية عاليا.

يقولون إني أشبه –إلى حد ما- ممثلا مصريًا اسمه "سليمان نجيب".

ولدت في زحلة لبنان، والدي شاعر، ووالدتي السيدة نعمة عبود راوية للشعر والأناشيد القومية.

تلقيت دراستي في المدرسة الأمريكية، ثم مدرسة الروم الأرثوذكس وتابعت دراستي الثانوية في الكلية الشرقية في زحلة حتى عام .1904

بعد تخرجي في الكلية الشرقية هاجرت عام 1905، إلى البرازيل وأنا في السابعة عشرة من عمري، وعملت في التجارة مع إخوتي في مدينة "كويابا" عاصمة ولاية "ماتو غروسو" ودرست اللغة البرتغالية.

لم تستهوني الحياة في البرازيل وكان حنيني دومًا إلى وطني، فشددت الرحال عام 1908 -بعد غياب دام ثلاث سنوات- إلى زحلة.

نشرت قصائدي في الصحف والمجلات في زحلة وبيروت ودمشق والبلاد العربية ومن مؤلفاتي المطبوعة:

"ديوان حليم" طبعة 1919 و1921، و"المثالث والمثاني" و"قاموس العوام" 1923 ، و"رباعيات وتأملات" (جزءان) 1952، و"ديوان يقظة الروح" أو "ترانيم حليم" القاهرة 1949 و"فاجعة بيروت" رواية.

بدأت علاقتي بالداهشية في الثاني عشر من آيار/مايو من العام 1942. حيث دعي الأستاذ يوسف الحاج إلى التكلم في حفلة خطابية أدبية في نادي المهاجرين، فتحدث عن اللغة العربية وجمالها وأسرارها وآدابها، ثم فاجأ الجمهور بموضوع الروحانية، بعد أن شهد من الدكتور داهش ظواهر روحية تكاد لا تصدق ومنها: تكلمه مع روح جبران خليل جبران، وقد تلا الأستاذ الحاج قطعة "الضباب" التي أوحتها روح جبران بواسطة الدكتور داهش.

فخرج الناس من تلك الحفلة الأدبية وهم بين الشك والحيرة، وخرجت أنا مثلهم، بعد أن عزمت عزمًا صحيحًا على زيارة الأستاذ الحاج في منزله.

* * *

كنت أعيش حياة مادية بحتة، وعلى الرغم من انتمائي إلى الكنيسة الكاثوليكية فإنني لم أكن

من المهتمين بإقامة الشعائر، وفي الحقيقة لم أكن أهتم حتى بالتعرف إلى الأديان الأخرى، ولولا موهبتي كشاعر، لكنت كرهت المسلمين أيضًا، ولكني كنت أضطر للتعامل معهم خصوصًا عندما زرت مصر.

كانت حياتي تدور بين قطبين: الشعر وحب المال.

لم أفكر أبدًا أن هناك حياة أخرى بعد هذه الحياة، حتى قابلت الشاعر الكبير يوسف الحاج، الذي كلمني عن الدكتور داهش وأخذني لزيارته، منذ ذلك اليوم تغيرت حياتي من المادية إلى الروحية الخالصة، وكرست حياتي للرسالة الداهشية، أدون كل ما شهدته من معجزات الدكتور داهش وتعاليمه، حتى أطلق عليّ لقب "مؤرخ الرسالة الداهشية"

كان موضوع السيالات يحيرني تمامًا، وجمعتني أكثر من جلسة مع الدكتور داهش حتى شرحها لي.

فالسيالات الروحية تعني قوى إشعاعية حية غير منظورة هي امتداد للروح في العوالم المادية.

والسيالات جميعها ذات إدراك وإرادة ونزعات، لكن على درجات متفاوتة.

إن وجود السيالات في البشر هو على تفاوت في العدد، والميزة، والدرجة، بين فرد وفرد. الأمر الذي يسبب تباينًا في القدرات العقلية والجسدية، واختلاف الميول والمواهب النفسية عندهم. كما أن انسجامها وسموها يبعثان السلام والاتزان في نفسه، وتناقضها وانحطاطها يسببان الاضطراب والاختلال. كذلك، فإلى تشابهها أو تباينها في الأشخاص والجماعات يعود التجاذب والتحاب، أو التنافر والتباغض.

إن فضل المعجزات الداهشية أنها توضح أنه توجد عدالة إلهية حكيمة مدبرة تشرف على جميع مصائر المخلوقات، بالنسبة لتحديد نتائج أعمالهم، فهي، أي العدالة الإلهية لا يفوتها شيء، مهما صغر ودق، ولا يعجزها شيء مهما عظم وتعقد.

وللمرة الأولى أهتم بأن أعرف عن الأديان الأخرى، حيث إن الرسالة الداهشية تنادي بالإنسانية والأخوة والأعمال الحسنة بين أبناء البشر قاطبة؛ إذ يجمعهم الإيمان بالحق، ونبذ الباطل المتمثل بالتفريق بين إنسان وآخر، أكان من ناحية المذهب، أو اللون أو أي شيء جسدي آخر.

فجميع الأنبياء جاءوا برسالة واحدة تحض على الخير. وقد حضني الدكتور داهش على دراسة القرآن.

فالسيد المسيح له المجد يقول: "لا تظنوا أني جئت لأنقض... بل لأكمل" (متى.(17 :5

كما جاء أيضًا في القرآن: إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا (150) أولئك هم الكافرون حقا وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا (151) والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفورا رحيما (سورة النساء: الآيات : 150

152).

إذن، الحل يكمن بالعودة إلى جذور الإيمان الصحيح بوحدة الأديان، أما العمل بها فيعد في المرتبة الأولى، ولا شيء غير ذلك.

إن الداهشية تؤمن أن للدكتور داهش ست شخصيات أو سيالات ممتدة منه، وهي كائنة في ستة عوالم أو درجات روحية عليا.

لقد أثبت بعدة معجزات روحية أن تلك الشخصيات يمكن أن تتجسد في وقت واحد أو على أوقات متزامنة لإتمام دور خطير لحماية النبي من الأخطار الرهيبة.

وشهد تجسد هذه السيالات في لبنان عشرات من الناس، أبرزهم عائلة الفنانة القديرة ماري حداد، والطبيب جورج خبصا، والدكتور فريد أبو سليمان، ونجيب العشي، والمحامي إدوار نون. وقد تأكد لهم بين الشخصيات الست تشابه كبير جدًا حتى ليستحيل التمييز بين شخصية وأخرى، ويمكن للمرء محادثتهم.

كنت أعمل بجدية وحماسة لم أشعر بمثلهما في حياتي من قبل، على الرغم من تقدم سني، وكنت أراسل مجلة "عالم الروح" المصرية لصاحبها الصحفي أحمد فهمي أبو الخير، وكنت أنقل لها أخبار معجزات الدكتور داهش.

ومما ذكرت في كتابي عن معجزات الدكتور داهش، كانت هذه الواقعة:

جاءه آنذاك، إلى منزله، المرشح للانتخابات النيابية عن منطقة عكار، بشير العثمان، طالبًا منه "المساعدة الروحية".

كان عثمان برفقة زوجته، التي بادرت إلى فتح موضوع الانتخابات مع الدكتور داهش لاستطلاع رأيه، أو "رؤيته" بمعنى أصح، وشكواها أن التحضير للاستحقاق يأخذ وقت العائلة كله.

يرد عليها الدكتور داهش: "اطمئني يا سيدتي".

ثم أمسك بيد الزوج، طالبًا منه التنفس بهدوء. وتبدأ "الجلسة الروحية".

أخيرًا، يكتب الدكتور داهش شيئًا على ورقة صفراء، ثم يطويها، ليعطيها للمرشح طالبًا منه ألا يفتحها، وأن يحتفظ بها في محفظته.

غادر الضيفان. لم يحصل أن تواصلا بعد ذلك مع الدكتور داهش إلى أن انتهت الانتخابات.

فاز بشير العثمان. أصبح نائبًا. يخبر الدكتور داهش أحدهم أنه سيزور النائب العثمان، قريبًا، برفقة الدكتور فريد أبو سليمان، وأن هذا الأخير سيطلب من النائب فتح تلك الورقة ليقرأ ما فيها.

ذهبا إلى منزل النائب، ونقلا له تهانئ الدكتور بفوزه، ثم قالا له إنهما يريدان تذكيره بأمر الورقة

التي في محفظته.

طلب من أحدهم أن يحضر له المحفظة. أخرج النائب تلك الورقة، فتحها، فقال بصوت عالٍ: "إن الأمر لا يصدّق، يا الله، الفوز أمر معقول، أما أن يحدد الدكتور داهش عدد الأصوات التي نلتها، قبل أن تحصل الانتخابات بأكثر من شهر"!

لم يكن ما كتبه الدكتور داهش على الورقة سوى الرقم 11856. بهذا العدد من الأصوات دخل العثمان المجلس النيابي. هذه الرواية نشرتها "اللواء" عدد 12 حزيران/يونيو 1964. وأكدتها زوجة العثمان.

سألت ذات مرة الشاعر يوسف الحاج، عن تسمية اسم الدكتور داهش، فأخبرني لأنه ولد في أحد مخيمات اللاجئين الفلسطينيين، الذي يحمل اسم "الدهيشة" بالقرب من بيت لحم.

إننا الداهشيون نؤمن بوجود أنظمة روحية عادلة تسود أرجاء الكون، ونؤمن بحقيقة التقمص التي يسمح من خلالها للكائنات بالانتقال، إما إلى كواكب ذات درجات رفيعة أو كواكب ذات دركات جحيمية، وذلك بحسب استحقاق الفرد بنسبة أعماله.

تؤمن الداهشية بوجود السيالات الروحية التي تربط العالم المادي بالعالم الروحي، وهي تعتبر امتدادات لعالم الروح الذي لا تشوبه أي شائبة مادية وموجودة على مستويات ودرجات متفاوتة، منها العلوية أو الفردوسية، ومنها السفلية أو الجحيمية؛ وهي متمثلة بالمادة التي نراها بالعين المجردة.

هي مسئولة عن وجود الحياة في البشر والنبات والجماد والكواكب؛ إذن يعتبر السيال قوة جامعة تربط كل ما هو مادي، معلوما كان أم مجهولاً، مرئيا كان أم غير مرئي، وقد ورد مصطلح "السيال" بإلهام إلهي للأديب العظيم جبران خليل جبران.

لقد سمح لبعض الأنبياء بمعرفة أدوارهم السابقة، من خلال إعلان إلهي، لا بإرادتهم. ومن ضمنهم الدكتور داهش، حيث كشف له بإعلان روحي أنه كان في تقمصاته، فقد خص الله الدكتور بالسيال العشرين لفداء البشرية، بحسب عمل روحي أحدث استدعاءه على الأرض، فالبشر بجملتهم خاضعون للتجارب، ولم يستثن الأنبياء من الأمر.

لقد رافقه سيال علوي طاهر يُدعى السيال العشرين؛ كان هذا السيال "فيه" ضمن نفسه أو سيالاته. وكما ذكرنا، هذا السيال العلوي الآتي العالم الروحي "العشرون" كانت له مهمة عظمى، في دور الفداء الخلاصي؛ فدوره الأساسي تمثل في تشديد النبي لإتمام الخلاص الإلهي، لا سيما في عودة السيد المسيح له المجد في اسم الدكتور داهش، إذ كان لا بد للسيد المسيح من عودة ثانية، كما قيل في التوراة والإنجيل والقرآن، وكمن دوره الأساسي في فداء الملائكة الساقطة من درجات النعيم العلوية؛ الذين انتموا في فترة ما إلى درجة روحية علوية، وهو -كما تم توضيحه- في قصة السقوط التي ذكرها الدكتور داهش في الجزء الثالث من كتاب "قصص غريبة وأساطير عجيبة".

وإذ ظل السيال العشرون ألفي سنة، على الأرض، عقب وفاة السيد المسيح، كان لا بد للسيد

المسيح أن يعود إلى سياله الموجود على الأرض، ليتمم عملية افتداء من استحقت نفوسهم ذلك.

هذا فضلًا عن دور السيالات الروحية العلوية في إلهام الأدباء والفلاسفة والمهندسين على الأرض، الذين إذا ما اجتهدوا من أجل الفضيلة وتنمية موهبتهم، ساعدهم في الإبداع لتصل الرسالة السماوية إلى أقصى حدود الإبداع، خذ مثالا على ذلك موسيقى الفنانين العظام، أمثال بيتهوفن وباخ وهندل وموزارت. ثم أعمال النحاتين كمايكل أنجلو والرسامين مثل دافنشي وغيرهم. لقد كانت لهذه السيالات العلوية الراقية قوة إلهام لهم تقوّيهم روحيًا وتلهمهم للوصول إلى أسمى مراتب الفن.

ظاهرة الثالث عشر من آب/ أغسطس 1943

منذ بضعة أيام، عالج الدكتور إحدى النوافذ في منزله، فتحطم زجاجها، واصطدمت شظية في بؤبؤ عينه، فجرحتها جرحًا بليغًا، خشينا معه أن يؤدي إلى مكروه، وعبثًا كانت المعالجة في عيادة الدكتور شاهين صليبي طبيب العيون المعروف، وسواه من الأطباء الاختصاصيين، ففي صباح هذا اليوم الثالث عشر من آب/ أغسطس، حضر المستر أوليفر وهو يحمل بضع زجاجات صغيرة مملوءة بشتى أنواع العقاقير، استحضرها من عيادة ابنه الدكتور الاختصاصي في أمراض العيون، وقصده أن يعالج عين الدكتور داهش، وعندما حاول الابتداء بالمعالجة، حضرت روح وابتسمت وطلبت قطعة من الورق الأبيض، فأعطيناها إياها، فكتبت عليه رمزًا مقدسًا، هو الرمز الداهشي، وطلبت إلينا ثنيه بشكل مثلث ووضعه على عين الدكتور داهش.

ففعلنا ما طلب منا القيام به، ووضعه المستر أوليفر بيده على عين الدكتور داهش، وهنا تمت المعجزة.

فإذا بعين الدكتور داهش تبرأ للحال، وتتألق بماء الحياة كأنه لم يكن فيها شيء، وعندما نظرنا إلى الورقة المكتوب عليها الرمز، شاهدناها قد استحالت إلى لون أسود شديد الحلكة، وقد رسمت عليها بيد مجهولة خطوط دقيقة حمراء تمثل شرايين العين البشرية.

فيالأسرار القوة السماوية.

❞ ظاهرة الرابع والعشرين من آب/ أغسطس :1943

كنا في موعد هذا النهار مع السيد إيليا كرم، مطران لبنان لطائفة الروم الأرثوذوكس، لزيارة الدكتور داهش في منزله، وما دقت الساعة العاشرة حتى كنا في غرفة الوحي، وكان بانتظارنا الأستاذ يوسف الحاج والدكتور جورج خبصا المؤمن الثالث، فعقدت جلسة روحية وطلب من المطران كرم أن يأخذ ورقة بيضاء، ويمسكها بيده مطوية، ففعل. وإذا برسالة روحية تظهر عليها بغتة وهذا نصها:

أيها الأب الفاضل

ليسبغ عليك الله بركاته العميمة، لقد فسد عالمكم، وطغت آثام البشر، فحق عليهم غضب القدير، إن تعاليم الرسالة الجديدة ستغمر أرضكم، فإذا أردت أن تخدم الحقيقة، وتتطوع لمناصرة العدالة، فتعاون مع الإخوة الأعزاء، لهداية البشرية المتألمة الضالة، وستعطي التعاليم الروحية السامية لهم، وسترشدهم للسير بها إلى النهاية، وسيطلعك الإخوة على الأسرار العظيمة للرسالة العتيدة.

مكتبة
بيت الحصريات
maktabbah.blogspot.com

وداعًا وإلى اللقاء "ناحوم".

* * *

إن الداهشي المثقف هو الذي يقرأ ما خطته براعة الحبيب، فهي فلذة كبده، وخلاصة فكره، ونور هدايته، بها تنار البصائر، وتطمئن القلوب، وتهتدي النفوس الضالة إلى سبل الحق.

والداهشي المحب للجمال هو؛ الذي يتمعن في المنحوتات والصور واللوحات الزيتية لما لها من سببية روحية وقيمة جمالية.

فتكون لدينا ثقافة فنية في فهم الجمال الإلهي، فالفن الراقي هو تجسيد الأفكار التي تختلج في نفس الفنان وعقله، التي لا يراها إلا صاحبها، وتاريخ يحفظ الحضارات من الاندثار.

والداهشي الواعي هو الذي لا يبخس الناس أشياءها، فالإخوة الذين جاهدوا وضحوا حتى الرمق الأخير، أولئك نبراس لنا، وقدوة في الجهاد، ومحاربة الذات، والتغلب على الرغبات، وأمثولة في الخلاص من هذا العالم الموبوء القذر، الذي تعشش الرذيلة في ذراته، وفي كل ما تعمر به هذه الفانية. العالم الذي لا تنبض قلوب ساكنيه إلا بالعصبية والطائفية والمذهبية، التي لا تمت للدين في شيء.

الذين ضحوا بمالهم ووقتهم وراحتهم لإنشاء المعالم الداهشية، التي سيكون لها دور كبير في نشر الرسالة الحبيبة ومفاهيمها، إن هو إلا تجسيد الإيمان المطلق بمؤسس العقيدة الداهشية، ومشاركته بأفكاره ورؤيته لتحقيق الهدف المرتجى.

الداهشي هو الذي يحفظ كلمة النبي الحبيب الهادي، ويلتزم عهده، ويعمل على نشر مبادئه، ويعمل من أجل إعلاء كلمته، ويضحي من أجل رفع رايته، ويسير على خطاه، فالسير على طريق الفضيلة، هو الشعاع الذي يربط ما بين الشعلة والظلمة، فلنضئ ظلمة هذا العالم.

مكتبة بيت الحصريات
maktabbah.blogspot.com

ظاهرة 18 حزيران/ يونيو :1942

لي ابن عم اسمه نجيب تامر دموس، كان يعمل في مدينة زحلة ثم انتقل إلى بلدة رياق للعمل مع الحكومة الإنجليزية، ويوم الإثنين الفائت أي الخامس عشر من الجاري سقط عن عربة خيل كبيرة، وأخرج من بين عجلاتها الحديدية وهو مهشم الرأس والأعضاء، فأرسل إلى مستشفى أوتيل ديو في بيروت، حيث عالجه الدكتور كوتار وبعض الأطباء.

فهرولت إلى منزل الدكتور داهش، عله يستطيع عمل شيء، فإذا هو قادم مع المستر أوليفر وأمين نمر، فأخبرته عن ابن عمي، وبينما نحن في الحديث، بلغنا تليفونيًا خبر وفاته قبل بضع دقائق، وهنا قال لي الدكتور داهش:

- يمكنني أن أعطيك رمزين مقدسين، فاذهب إلى المستشفى وضع هذين الرمزين تحت إبط الميت، فترى ظاهرة ستدهشك جدًا، اكتمها الآن عن الجميع، لأن الناس لن يصدقوك، وها أنا سأعود ثانية إلى رأس المتن مع المستر أوليفر والسيد أمين، فاكتب إليّ ما سيحدث معك.

وهكذا فعلت سرًا دون أن يدري أحد، وإليك ما جرى.

توجهت بمفردي إلى المستشفى، والرمزان المقدسان معي، ودخلت إلى حيث كانت الجثة مسجاة في غرفة الموتى، قبل أن توضع في النعش بمعرفة الطبيب الصحي الدكتور إلياس الحلو، والحقيقة أنني دهشت وخشعت لما حدث أمامي.

ولما كانت الجثة ستؤخذ اليوم إلى زحلة حيث تدفن، ولما كان يتوجب عليّ مرافقتها للأخذ بالخاطر مع آل الميت والأنسباء والأصدقاء، رأيت أن أكتب إلى الدكتور داهش عما تم معي فقلت له ما خلاصته:

أخي داهش، بعد ما غادرتك والمستر أوليفر وأمين نمر، ذهبت إلى المستشفى، ودخلت حيث ابن عمي ووضعت تحت إبطه الرمزين المقدسين، فإذا به يفتح عينيه رويدًا رويدًا وهو يبتسم ويقول:

- إنني حيّ كما ترى، ولم تنفصل روحي عن جسدي الانفصال التام، أما عدم استطاعتي التكلم، أو الإتيان بحركة ما، فهو بسبب ذهاب سيال النطق، لكن عندما وضعت الرمزين المقدسين، أعادا إليّ هذا السيال، لهذا تراني أستطيع المحادثة معك يا ابن عمي.

وبينما هو يحدثني دخل علينا فجأة أحد الأشخاص العاملين هناك، وما شاهد الميت يكلمني بعينيه المفتوحتين حتى صرخ برهبة ورجع إلى الباب وهرول لا يلوي علي شيء، أما أنا فخرجت دون أن أراه.

مكتبة بيت الحصريات
maktabbah.blogspot.com

* * *

ظاهرة 15 شباط/ فبراير :1943

في هذه الجلسة الروحية حضرت روح أبي العلاء المعري، وأملت على الدكتور داهش هذه الرسالة الروحية البليغة:

"أرحام تدفع، وأرض تبلع، وهاوية تتصدع وتفلع، فتهوي بها أرواح الهلكى، وكل منها في ردكه التاجي يقبع، وتهرع الشياطين إليهم وإذا بسياطها تخفض وترفع، والهامات تفلق بقوة صارمة ثم تقطع... ".

مكتبة بيت الحصريات
maktabbah.blogspot.com

* * *

في الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي، اتصلت بي فاطمة وأخبرتني أنها ستمر عليّ بعد ساعة، وعندما قابلتها أعطتني حقيبة متوسطة الحجم للاب توب، لها لون أسود ثم قالت إنها ستأخذني إلى مكتبة الوثائق حيث يتم الاحتفاظ بأرشيف لكل الصحف اللبنانية.

فرحت لأني سأقضي اليوم مع فاطمة!

وهذه هي حصيلة هذا اليوم كما دونتها في ملاحظاتي:

تحت عنوان: داهش صرعة أم حقيقة؟ كتب الصحفي وليد عوض في مجلة "اللواء"العدد 90 السنة الثانية - الجمعة 18 أيلول/سبتمبر 1964

عن اللقاء الذي أجراه مع الوزير السابق إدوار نون حول داهش، وهذا نص اللقاء كما ورد في ذلك العدد:

حول مائدة الغداء، في الهواء الطلق، وبين الخمائل والأغصان التي تطل من حديقته، سألت الوزير السابق والمحامي الكبير إدوار نون:

- أو تدري، كم نحن في حيرة من أجل الدكتور داهش.. صديقك؟

قال وهو يقطع شريحة البفتيك بأناقة الدبلوماسي:

- ولمَ الحيرة؟

- لأننا نواجه عند قرائنا أسئلة محرجة. فمنهم من يتهمنا بأننا نتقاضى تسعيرة إعلانية عن كل سنتيمتر عمودي نكتب فيه عن خوارق الدكتور داهش، ومنهم من يتهمنا بأننا من أتباعه، نخضع

لسلطته، وتآمر بأمره، ومنهم من يتحدانا إذا كان ما نكتبه صحيحا، بأن نطالب صاحبك وصاحبنا بنقل تنبؤاته من صعيد الخواتم والمعاطف الضائعة وأوراق اليانصيب الخاسرة، إلى صعيد المعارك الكبرى، كفلسطين، وقبرص، ومستقبل الجنوب العربي المحتل.

قال وزير الأشغال والتربية، في عهد الشيخ بشارة الخوري، وهو يتناول قطعة خبز محمرة:

- وأين أنتم في كل ذلك؟

قلت:

- نحن في الواقع معجبون بهذا الرجل، لأننا عاشرناه عن قرب، صحيح أنه غريب الأطوار، قليل الظهور بين الناس، متغيب أكثر الأحيان عن منزله، إلا أنه إنسان مهذب خلوق، خفيف الظل، قليل الكلام، قصير الزيارات، والزيارات القصيرة، كما يقولون، تخلق الصداقات الطويلة!

قال:

- هذا رأي إنسان محب.

قلت:

- ويبقى أن نعرف رأي الوزير السابق، خصوصا أنه من الذين يستشهد بهم الدكتور داهش للدلالة على صحة تنبؤاته.. ولاذ إدوار نون بفترة صمت، ثم مسح شفتيه، بعد انتهائه من شريحة "البفتيك"بفوطة ناصعة بيضاء، وقال:

- لقد عرفت الدكتور داهش، وأنا محام عن موكلتي السيدة ماري حداد التي اتهموها تارة بالجنون، واختلفوا معها طورًا على ميراث، وسجنوها طورًا ثالثًا بسبب كتبها السوداء ضد فخامة الرئيس الراحل الشيخ بشارة الخوري. وبقدر ما كنت صديقا في تلك الأيام للرئيس بشارة الخوري، بقدر ما كنت أحدثه بالخير عن الدكتور داهش، وأطلب منه أن يرفع يده عن الرجل، خصوصا، أن ملوك ورؤساء أوروبا كانوا يفتحون لمثل هذا الرجل أبواب الحظوة، ويقربونه منهم، لا يلاحقونه بمذكرات الجلب والتوقيف وقرارات النفي.

- وبماذا كان الشيخ بشارة، رحمه الله، يجيب؟

- لقد وعدني بالدكتور داهش خيرًا في آخر حديث بيني وبينه وهو رئيس جمهورية، لكن بدا لي فيما بعد أن معركة الدكتور داهش لم تكن مع الرئيس الراحل بشارة الخوري بقدر ما كانت مع المرحوم ميشال شيحا صاحب لوجور وصاحب النفوذ الطويل العريض في ذلك الوقت، وشقيقته السيدة لور باعتبار أن موضوع المشكلة هو أختهما السيدة ماري شيحا حداد..

- وحين أخبروك بنفي الدكتور داهش؟

- حزنت جدًا، ولم أكن لأؤمن بأن النفي هو لمثل هؤلاء الناس؟

- والوزير السابق، ماذا رأى من خوارق الدكتور داهش؟

- رأيت ورقة بيضاء في يد زوجتي تمتلئ بكلام كتبه الدكتور داهش عن بعد خمسين مترا تقريبا.

- وغير ذلك؟

- رأيته يخترق الجدار، يسبقنا إلى داخل منازل لم نكن نستطيع -نحن- دخولها إلا بعد فتح الباب، لمحته في أكثر من شخصية.

- هل تتصور أن هذا فعل التأثير؟

- أبدًا.

- ماذا تسميه أنت المثقف الكبير إذن؟

- أنا نفسي حرت في حل لغز هذا الرجل.

- الداهشي لا يرى فيه لغزا.

- أنا مجرد صديق مقرب أوده ويودني، ورأيت منه ما لم يره إنسان..

- والأرواح هل اتصلت بها؟

- رأيت منها ما يتقمص في شخصية.

- هل له ملامح معينة؟

- لصوته ملامح معينة، ولكن الجسد الذي يتقمصه هو جسد الدكتور داهش.

- لماذا لم تصبح داهشيا إذن؟

- أنا عادة لا ألتزم بوجهة نظر واحدة.

- وماذا يعجبك في الداهشيين إذن؟

- دعوتهم إلى العدالة الاجتماعية، بحيث يرتفع مستوى أبناء الطبقة المحرومة، بمساهمة الأغنياء، لكن دون وضع اليد على ممتلكاتهم.

- وبعد أن فرغنا من تناول الغداء دعاني الوزير السابق إلى تدخين السيجار على مصطبة الطابق الثاني، وبعد أن قدم لي السيجار قال لي:

- أرى أنك ما زلت حائرًا..

ولما ابتسمت عاد يقول:

- افعل مثلي، اقبل خوارق داهش كما هي، ولا تحاول أن تناقشها. إنها النتيجة التي انتهيت إليها بعد تفكير طويل، فهدأت نفسي، وارتاح بالي.

وأذكر أنني حين هممت بالانصراف قال لي:

- اسمع يا صديقي، ضع ثقتك في هذا الرجل، ولا تسل. حسبك منه، كما قلت، إنه إنسان خلوق، وغير باقي البشر.

***

مكتبة بيت الحصريات
maktabbah.blogspot.com

الفصل السادس

في هيكل الدكتور داهش

غـــازي براكـس

أكتب هذه الشهادة –للتاريخ– من أجل تفنيد الأكاذيب والافتراءات التي دارت حول النبي الهادي، وهي على هيئة ملاحظات لا أعرف إذا كان العمر سيمتد بي لأضمنها في كتاب كما فعلت من قبل أم لا، أعترف أني فقدت كل رغبة لي في الحياة منذ فقدت رفيقة عمري نجوى سلام براكس منذ عامين.

لأعود إلى الملاحظات:

أولا: إن رواية وضع الدكتور داهش رأسه عند الحلاق، لا تمت، في الحقيقة، بأية صلة إلى معجزاته، إنما هي من نتاج الأقلام المسمومة المصابة بداء الحقد الطائفي التي اهتزت أركانها في الأربعينيات، خوفًا من دعوة الدكتور داهش إلى وحدة الأديان والتآخي الإنساني، فراحت تختلق الأكاذيب حول شخصه ومعجزاته ومبادئه.

ثانيا: عن الورقة التي سلمها الدكتور داهش للنائب بشير العثمان، التي تضمنت نبوءة بفوزه في الانتخابات النيابية، فهو صحيح في جانب منه، لكنه جزم بأنه "لم يكن ما كتبه داهش على الورقة سوى الرقم 11856، أي عدد الأصوات التي دخل العثمان بها المجلس النيابي" وفق قوله.

هذا الجزم بأمر مضمون النبوءة عارٍ من الصحة تمامًا. فصورة النبوءة مدرجة في مجلة "اللواء"، فالورقة توسطتها نجمة خماسية، وقد جاء فيها ما يلي:

"بحق الله والنبي الحبيب الهادي، أن يسمح بمساعدة روحية كي ينتصر الأخ الحبيب بشير العثمان، وبما أنه سينتصر فإنه سيأخذ 11856 صوتًا من أصوات الناخبين، وذلك بمساعدة روحية بإذنه تعالى".

وعن يمين الورقة كتب ما يلي: مستجاب بحق الله تعالى

وتحتها "تاريخ 29 شباط/فبراير 1964" وتوقيع "داهش".

وعن يسار الورقة كتب ما يلي: الساعة 4 ونصف بعد الظهر.

أما الهدف من حدوث تلك المعجزة، فهو إثبات وجود الروح وقدرتها على معرفة الماضي والحاضر والمستقبل بإذن الله تعالى، وبقوة جبارة منه، ليس إلا.

ثالثًا: إن المعجزة التي تم فيها استحضار القطع الذهبية التي فكر فيها الرئيس صبري حمادة

إلى قبضة يده المقفلة أمام الحضور، صحيحة.

وما شاهده الرئيس حمادة ومرافقوه الكثير من معجزات في تلك الجلسة، جعلهم يأبون المشاركة في اضطهاد الدكتور داهش، ويردون مشروع القانون الذي تقدم به الرئيس الخوري إلى المجلس النيابي من أجل منع القيام بالمعجزات والأعمال الخارقة في البلاد، الذي كان الهدف الحقيقي منه النيل من الدكتور داهش ومنعه من إتيان الخوارق وعقد الجلسات الروحية. وهو ما أطلقت عليه الصحف آنذاك اسم "قانون داهش" وقد هزم بشارة الخوري، يومذاك، هزيمة مدوية فيما كان يخطط له بغية إخراج الدكتور داهش من البلاد، الأمر الذي جعله يقدم على ارتكاب جريمة تجريده من جنسيته اللبنانية وإبعاده عن وطنه، بالقوة، خلافًا للدستور والقوانين.

تلك الجريمة تعد بحق جريمة القرن العشرين بلا منازع، إذ وقفت دولة بشخص رئيسها وبعض سياسييها، وبكامل أجهزتها القضائية والأمنية، في مواجهة مواطن أديب ومفكر، دينه الحقيقة، ومعدنه الصدق، وغايته الخير الأسمى، وأعزل إلا من سلاح القلم، ولم يرتكب أية جريرة يحاسب عليها، فشوهت سمعته أمام الرأي العام، وسامته حيفًا سيذكره التاريخ في صفحاته، وستتذكره الأجيال القادمة بكل أسى، مهما طال الزمن.

رابعًا: إن الذين عرفوا الدكتور داهش على حقيقته كثيرون، فيهم الشعراء والفنانون والصحافيون ورجال الأعمال وعمداء الجامعات والأساتذة والضباط والعسكريون والناس العاديون، رجالًا ونساءً، تشهد بذلك المقالات والدراسات والقصائد الشعرية التي ضمها كتاب "الدكتور داهش بأقلام نخبة من معاصريه بمناسبة الذكرى المئوية لمولده" وكذلك الكتب العديدة الأخرى الصادرة حول شخصه وخوارقه وأدبه، وفي قضية اضطهاده.

أما الداهشية، فهي كما قال فيها مؤسسها:

"الداهشية جبل أشم شامخ الذرى، ثابت الأركان، راسخ ومكين صيغ من الفولاذ الجبار القوي الصلب الصلد المتراص المتين تلتوي كرتنا الأرضية، ويتلاشى وجودها دون أن ينحني أو يلين...".

أنا غازي براكس، لا أذكر من حياتي التي انقضت قبل أن أصبح داهشيًا إلا تلك السنوات التي درست فيها حتى حصلت على لقب "دكتور دولة في الآداب".

قبل أن أصبح داهشيًا كنت ماديًا بحتًا، لم أكن متدينًا، وكنت منكبًا على دراسة اللغة العربية والشعر والنثر، بينما تدور في أعماقي دوامات من الشك.

هل أنا موجود؟

إذا أنا قرصت نفسي سأشعر بألم، وإذا جرحت نفسي سأنزف. إذا طعنت نفسي سأقتل.

إذن أنا موجود.

قد يكون هذا الجواب منطقيا.

في بعض الأحيان قد تواجه الألم والحب؛ ترى الأشياء، الأشخاص، الأماكن؛ أنت تمشي، تفكر، تصرخ، تضحك، تغني، تصعد جبلًا، تسبح، تتزوج، تمارس الجنس، تقود سيارة، تشارك في مناقشات فكرية.

أنت "موجود" ولا أحد يمكنه إقناعك بخلاف ذلك، لكن، وعلى حين غرة، يقرع جرس المنبه، تمد يدك لإيقافه، والآن أنت مستيقظ، الآن أنت مستيقظ حقًا.

مهلًا!

اعتقدت أنك كنت موجودًا في الوقت الذي واجهت فيه الأمور المذكورة سابقًا.

من الواضح أنه مجرد حلم كان في الحقيقة امتدادًا لوجودك الحالي!

حسنًا، أسلّم بأنه كان مجرد حلم، وأنك عدت إلى "واقع الحياة"، لكن ماذا لو كانت هناك ساعة منبه على وشك أن تنفجر وأن توقظك إلى "الوجود الحقيقي"؟

إن ما ينظر إليه على أنه حقيقة قد لا يكون حقيقيًا على الإطلاق.

الحلم الذي ذكرناه للتو، هو حقيقي لك فقط، ويشكل جزءًا من واقعك. وعلى الرغم من ظهور هذا الواقع مختلفًا من شخص لآخر فإنه توجد حقيقة تشمل الكون بأسره، وهذا هو الواقع الذي يهمنا.

إن حياتنا كلها أشبه بحلم.

إذا كان الوجود النسبي لكل واحد منا ليس سوى حلم منتمٍ إلى وجود آخر ذي واقع مختلف، فكيف لنا أن نعرف بأن الوجود في ذلك العالم المختلف هو الوجود الحقيقي، وأنه، بدوره، ليس حلمًا ينتمي إلى واقع آخر؟

هل الحياة التي نعرفها هي "الحقيقة المطلقة"؟

إن الحقيقة التي أتحدث عنها هي الحقيقة المطلقة لا أية حقيقة نسبية أخرى. إنها صعبة الفهم وبعيدة عما يمكن أن نتصوره.

كيف نقترب إذن من فهم "الحقيقة المطلقة"؟

هل يمكننا تلمسها من خلال العلم؟ لا يمكن للعلم إلا تفسير الواقع الفعلي (المادي) للحياة، وهو ليس بمكان لسبر غور عالم الحقيقة الروحية.

هل ينبغي أن نقضي ردحًا طويلًا من عمرنا في التأمل على أمل سطوع شيء من النور ليبين لنا الطريق؟

بما أن جوهر كل الأديان مماثل، هل هو حقًا مهم كيف تعبد خالقك؟ هل هو حقًا مهم أي

كنيسة، مسجد، أو معبد يهودي تحضر؟

بعد انتقال المؤمن الثاني، الأخ الشاعر حليم دموس إلى الفراديس السماوية في عام 1957 ، كان لا بد من استكمال مهمة تأريخ وتسجيل أحداث الرسالة الداهشية، وقد اختارتني الأرواح لهذه المهمة.

لقد اختارني مؤسس الداهشية حصرًا لأسباب تتعلق بتقمصاته السابقة، وأيضًا لأن الروح الإلهي اختارني لكتابة "الكتاب الداهشي". وقد حدث هذا عندما تحولت -بمعجزة روحية- ورقة بيضاء كانت في يدى إلى رسالة روحية تبلغني ما يلي: ستكون ملهمًا في كتابة الكتاب، وذلك بنفس الطريقة التي ألهم فيها تلاميذ السيد المسيح عليه السلام كتابة أناجيلهم.

منذ ذلك اليوم، بدأت في مباشرة حياة جديدة ليس فيها إلا تدوين كل ما يتعلق بالدكتور داهش.

عندما عدت إلى بعض الصحف الصادرة عام 1942، ارتعشت إذ رأيت فيها أن هناك نبوءة تنبأ بها الدكتور داهش، وكتبها الشاعر حليم دموس بخط يده ومفادها: أني سألقي محاضرة حول معجزات الدكتور داهش في تاريخ اليوم المذكور وفي الجامعة الأمريكية، ويوم كتب حليم دموس النبوءة كنت في السادسة من عمري!

لقد سافرت إلى مسقط رأس الدكتور داهش، وزرت كل مكان عاش فيه وهو طفل ثم شاب، قابلت الناس وجمعت شهاداتهم وأودعتها في كتابي.

وأقتبس هنا بعضًا مما كتبته في كتابي "مدخل إلى الداهشية/ حياة الدكتور داهش ومعجزاته وعقيدته":

قال الدكتور داهش:

"جئتكم بطعام لم يذقه البشر منذ ألفين من السنين، طعام سيكون منًا وسلوى لبعض وسمًا زعافًا لبعض، به سيقوى ويستيقظ كثيرون، وبه سيسقط ويخزى عديدون، لكن الحياة المتصاعدة لا تبالي إلا بالأقوياء الأنقياء من أبنائها فلهم وحدهم تسلم قيادتها".

* * *

المصير الفاجع الذي صار الإنسان إليه ما كان استحقه لو لم يختره راضيا، فقد آثر أن ينهج المسلك المادى الخارجي، لأنه يشبع غرائزه البهيمية وميوله الفردية الأنانية ونزعاته الاجتماعية العدائية بما يقدم من لذة حسية آنية سهلة ومجد دنيوى سريع.

وتنكب عن المسلك الروحي الداخلي الذي في انتهاجه التصاعدي وحده يكون تكامل الإنسان

وتساميه الحقيقي.

وقد أغرى البشر في سلوك ذلك الطريق المنحرف تخليهم عن الإيمان اليقيني الثابت بوجود الروح وخلودها، ولذلك طالب بإثبات واقعي غير نظري لوجود الروح، إثبات علمي يطمئن قلق الإنسان ويبلسم جراحه النازفة ويضيء الأمل بالخلاص في نفسه.

وما كان للعلوم العقلية المعروفة أن تقدم ذلك الإثبات الواقعي ما دام الروح لا يحد بمقياس ولا يسخر لمشيئة الإنسان، وما دامت وسائل العلم تجريبية محدودة.

وإزاء هذا العجز البشري وضرورة الإيمان الملحة لإنقاذ الكثيرين لم يبق إلا للروح نفسه، وهو الأعلم والأقوى أن يعلن ذاته ووجوده للناس بإذنه تعالى ورحمته.

وإذا الروح يتنزل من لدنه تعالى على رجل من لبنان، وهو الدكتور داهش ليملأ بحقيقة وجوده فراغ نفوس كثيرين، وليبهر أبصار المنكرين ويعزِّي

* *

❞23 آذار/ مارس :1971

في الساعة الخامسة والنصف مساء، اتصلت بالسيدة ماري كويني تليفونيًا واستعلمت عنها وعن عنوان سكنها، فأجابتني بأنها تقطن في إحدى بنايات مصر الجديدة، وأعطتني عنوانها، وقالت لي إنني أنتظر قدومك، لأنني قلت لها إنني قادم من قبل شقيقتها هند في بيروت.

وعندما سألتني عن اسمي، قلت لها: السيد مطر.

في الساعة السادسة إلا ربعًا، استقليت تاكسيًا وذهبت إلى مصر الجديدة وصعدت إلى الطابق الرابع شقة رقم أربعمائة واثنين، وهي الشقة التي تقطنها السيدة ماري.

وفور فتح الباب ومشاهدتي إياها، عرفتها، إذ لم تتغير على الإطلاق ولي معرفة بها منذ أربعين عامًا خلت، أي عندما كنت في القاهرة في العام .1931

أما ماري كويني، فلم تعرفني، وبعدما تحدثنا بشتى الأمور قلت لها

- ألم تعرفيني؟

قالت:

- لا.

قلت لها:

- أنا الدكتور داهش.

فقفزت من الدهشة وقالت:

- هل حقيقة أنك هو؟

قلت:

- نعم، وهل تغيرت بهذا المقدار حتى لم تعودي تميزين معالمي؟

قالت:

- من دون ريب لقد تغيرتْ كل التغير.

أجبتها:

- أما أنت، فالحقيقة أنك ما زلت تحتفظين بشكلك الذي عرفته منذ أربعين عامًا طواها القدر في أحشائه.

وسألتني ماري:

- ماذا تعمل اليوم.

وكررت السؤال فقلت لها:

- الآن سأدعك تعرفين ماذا أصنع ما دمت تلحّين بهذا الأمر.

وأجريت أمامها وأمام نجلها الوحيد، وعمره ثلاثون عامًا ولديه طفل وطفلة، تجربة الكتابة بالهواء.

فدهشا لهذه المعجزة أشد دهشة. قال ابنها:

- الحقيقة، ما كنت أؤمن على الإطلاق بالأمور الروحية، لأن جميع من شاهدتهم كانوا دجالين من دون أي شك، أما ما شاهدته مع والدتي الآن، فإنه يفوق كل تصور وكل خيال، وأنا منذهل لما لمسته لمس اليد وهو لا يدحض مطلقًا.

ودعت ماري كويني ونجلها وقفلت عائدًا إلى فندق شهر زاد، فبلغته بعد نصف ساعة.

* * *

في العام 1953، انتهت أزمة الدكتور داهش التي تردد صداها في العالم. وبالطبع كان لمصر

الصدى الأكبر في هذا الاهتمام بقضيته، كما يبدو من مقالات الصحفيين المصريين.

وفي العام 1955، يخرج توفيق الحكيم –وهو الأديب- على الناس "بمذهب جديد" سماه "مذهب التعادلية".

نشر توفيق الحكيم مبادئ مذهب "التعادلية" في عدة مقالات مطولة، ثم أوجز مبادئ هذا المذهب الجديد في خمسة مبادئ (هل هي مصادفة: العدد خمسة؟) وهي :

- 1 أنت "تعادلي" إذا كنت تعتقد أن الوجود هو التعادل مع الغير. لا بد من غيرك لتكون أنت.

- 2 أنت "تعادلي" إذا كنت تعتقد أن الفكر يجب أن يكون معادلا للعمل.

- 3 أنت "تعادلي" إذا اعتقدت أن الخير والشر وضعان للإنسان، وأن الخير يجب أن يعادل ويوازي الشر.

- 4 أنت "تعادلي" إذا كنت تعتقد أن العقل بمنطقه وشكه يجب أن يعادل ويوازن القلب بشعوره وإيمانه.

- 5 أنت "تعادلي" إذا كنت ترى أن الأثر الأدبي أو الفني يجب أن يقوم على التعادل والتوازن بين قوة التعبير وقوة التفسير.

ويبدو أن هذا "المذهب" لم يلق قبولا عند الناس ولم يتحول إلى "عقيدة" كالداهشية، واختفى هذا الكلام بعد لسنوات.

في الرحلة الداهشية السابعة عشرة عام 1981، يزور الدكتور داهش مصر، وفي عام 1982 يقرر توفيق الحكيم فجأة أن يحيي مذهب "التعادلية" لكن مع بعض التغيير، ليكتب "الإسلام والتعادلية" وجاء في مقدمته:

في عام 1955 كتبت " التعادلية" لأوضح أن كل شيء في الكون يقوم على التعادلية.

ثم وصلت إلى 1982، فوجدت أن ديني، وهو الإسلام، وهو جزء من النظام الكوني، قائم على التعادلية، ولذلك أضفت هذا القسم الأخير الخاص بالإسلام من وجهة النظر التعادلية، ورأيت أن ما يمكن جعله أساسا لفلسفة عربية إسلامية، هو ما نشأ من عقيدتنا التي تقول للإنسان أن عليه أن يعيش في عالمين: "يعيش في الدنيا كأنه يعيش أبدا، ويعيش للآخرة كأنه يموت غدا".

(ونحن اليوم بصدد تقنين الفقه الإسلامي، وجعل الشريعة الإسلامية أساسا للتشريع).

* * *

ثم شرع يشرح كيف عادل ووازن الإسلام بين أمور الدنيا والدين!

من يملك أن يفسر كل هذه الأحاجي؟

* * *

في عام 1971، كان الدكتور داهش في زيارة إلى مصر، وفي العام 1972 يقوم برحلته الداهشية السادسة، يزور فيها عدة دول أوروبية من بينها: ألمانيا.

في عام 1974، يسافر الأديب عبد الحكيم قاسم إلى ألمانيا (هل هي مجرد مصادفة؟) ويقيم فيها عدة سنوات.

في عام 1981، يعود داهش لزيارة مصر، وفي هذا العام تنشر في مصر رواية عبد الحكيم قاسم "طرف من خبر الآخرة".

هل هي مصادفة ثانية؟

وفيها يدفن رجل، وفي قبره يدور حوار بينه وبين الملكين، ناكر ونكير.